تأويل العلم في القرآن الكريم

تأويل العلم في القرآن الكريم
تأويل العلم في القرآن الكريم

الدكتور سامر مظهر قنطقجي

KIE Publication

تأويل العلم في القرآن الكريم

د . سامر مظهر قنطقجي

الطبعة الأولى ٢٠٢٦

وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ

سورة النمل: ٤٢

منشورات كاي

إن مطبوعات (كتاب الاقتصاد الإسلامي الالكتروني المجاني) تهدف إلى :

- تبني نشر مؤلفات علوم الاقتصاد الإسلامي في السوق العالمي؛ لتصبح متاحة للباحثين والمشتغلين في المجالين (البحثي والتطبيقي) .
- توفير المناهج الاقتصادية كافة للطلاب والباحثين بصبغة إسلامية متينة .
- أن النشر الالكتروني يعتبر أكثر فائدة من النشر الورقي .
- أن استخدام الورق مسيء للبيئة، ومنهك لمواردها .

واللهُ من وراء القصد .

رابط زيارة جامعة كاي KIE university

يمكنكم التواصل من خلال : www.kantakji.com

جامعة كاي

خيارك الأفضل لدراسة الاقتصاد الإسلامي وعلومه

https://kie.university

توضيح

إن كل ما ورد في الكتاب هو حقوق بحثية للمؤلف، ويعتبر ورقة بحثية من الأوراق البحثية لمركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية وجامعة كاي.

يسمح باستخدام هذ الكتاب كمنهج أكاديمي – كما هو منشور – مجانًا مع ضرورة المحافظة على حقوق المؤلف.

www.kantakji.com , www.kie.university

الإهداء

اللهم اجعل ثواب عملي هذا في صحيفة حفيديّ (سامر وأخته ليليا) وأهليهم.

كتاب أهديه إلى كل طالب علم؛ اشرأبت عنقه تطلعًا للحقيقة. ليكون طريقًا موصلاً له.

والله من وراء القصد

المؤلف...

الفهرس

منشورات كاي ٤

توضيح ٦

الإهداء ٧

الفهرس ٨

المقدمة ١٤

التفسير والتأويل ١٥

الفصل الأول: صناعة العلم ١٨

المبحث الأول مصطلحات ذات علاقة بالعلم عند أهل التفسير ١٩

المعرفة ١٩

الفهم ١٩

الفقه ١٩

العقل ٢٠

الدراية ٢٠

الحكمة ٢٠

المبحث الثاني أدوات إثبات العلم (الحجج والأدلة والبينات والبراهين) ٢١

الحجة ٢١

الدليل ٢٢

البيّنات ٢٢

البرهان ٢٣

السلطان ٢٨

المبحث الثالث طرق إدراك الحقائق بالمنهج القرآني ٢٩

المبحث الرابع الإدراك وعلاقته بغيره من المصطلحات---------- ٣٣
الإدراك والعلم ٣٣
الإدراك والإحساس ٣٤
الإدراك والوجدان ٣٤
الذّوق وإدراك الطّعم ٣٤
المبحث الخامس حكمة رد العلم إلى الله---------- ٣٥
المبحث السادس طرق انتقال العلم---------- ٣٩
تعليم الملائكة ٣٩
تعليم آدم عليه السلام أول البشر ٤١
التعليم بإقرأ ٤٤
الحواس أدوات تعلّم ٤٥
العقل والتعلّم بالمحاكاة ٤٥
المبحث السابع طرق كسب العلم الغيبي---------- ٤٧
الحقائق العلمية اليقينية في سورة الفاتحة ٤٨
عناصر الإيمان والضلال في سورة البقرة ٤٩
ثمرات الإيمان بالغيب ٤٩
المخادعة والإفساد ٥٠
جزاء الإيمان بالغيب ٥٢
ضربُ المثل منهج تجريبي ٥٣
العلم الغيبي مصدره الخبر اليقيني ٥٤
القضية الايمانية والقضية الكونية ٥٨
المبحث الثامن طرق كسب العلم الأولي---------- ٦٠
كسب العلم بإيحاء من الله لرسله ٦٠

كسب العلم بتعليم الله تعالى لرسله ٦١
كسب العلم من رسل الله وأنبيائه ٦٦
كسب العلم بمحاكاة المخلوقات ٦٧
المبحث التاسع طرق فساد العلم ٦٩
تشويه الحقائق والميل عنها ٦٩
العادات والتقاليد ٧١
التكبر وإدعاء التفرد ٧٢
آفات نقص العلم ٧٣
المبحث العاشر مقومات العملية التعليمية ٧٥
الحاجة للرسول المعلم ٧٥
مهمة الرسول المعلم التبشير والإنذار ٧٦
مذاكرة الرسول العلم مع المتعلمين ٧٦
موسى والخضر والعملية التعليمية ٧٧
مراتب العلم ٧٨
الفصل الثاني: المنهج ٨١
المبحث الأول الشرعة والمنهاج ٨٢
المبحث الثاني قضية الشرع في القرآن الكريم حسب أقوال المفسرين والفقهاء ٨٥
آراء المفسرين في قضية الشرع ٨٥
آراء الفقهاء في قضية الشرع ٨٦
آراء المدارس التفسيرية المعاصرة ٨٨
المبحث الثالث قضية المنهج في القرآن الكريم حسب أقوال المفسرين والفقهاء ٨٩

آراء المفسرين في قضية المنهج القرآني ٨٩
آراء الفقهاء في المنهج القرآني ٩٠
آراء الفقهاء المعاصرين في المنهج القرآني ٩١
المبحث الرابع منهج الاستنباط ومنهج الاستقراء ٩٢
الاستنباط ٩٢
الاستقراء ٩٤
المبحث الخامس المنهج والقصص القرآني ٩٦
القصص القرآني والمنهج العقلي ٩٦
القصص القرآني والمنهج التجريبي ٩٧
القصص القرآني والموضوعية ٩٨
المبحث السادس خواتيم الآيات والمنهج الاستنباطي ١٠١
الدلالة المنهجية لخواتيم الآيات ١٠٣
كيف يستنبط الفقهاء والأصوليون الأحكام الشرعية من خواتيم الآيات؟ ١٠٥
المبحث السابع الحاجة إلى التجديد المنهجي ١٠٧
عوائق تحجز العقل البشري ١٠٧
العلم لا يُورث كما الدار والشجر والحجر ١٠٩
المنهج الإسلامي لا يخاف التجديد ولا حركته ١١٠
طلب الفقه فرض كفاية ١١١
لماذا كان التجديد بلفظ المنهج؟ ١١٢
محاكاة القرآن الكريم لأصحاب العقول الاستنباطية المتدبرة ١١٣
المبحث الثامن منهجية قواعد أصول البناء ١١٨
قواعد أصول البناء ١١٨
قواعد أصول البناء الأصولي ١١٨

تلخيص القواعد وخطوات تطبيقها على أمثلة فقهية ١٢٠
المبحث التاسع منهجية التفكير الفقهي ١٢٦
الأسس الفكرية للمذهب الحنفي ١٢٦
الأسس الفكرية للمذهب المالكي ١٢٨
الأسس الفكرية للمذهب الشافعي ١٣٠
الأسس الفكرية للمذهب الحنبلي ١٣٢
مقارنة بين الأسس الفكرية للمذاهب الأربعة ١٣٤
المبحث العاشر منهجية التدرج الفقهي ١٣٨
الفتيا والاستفتاء ١٣٨
أثر تغير الظروف في الفتيا ١٣٩
مراعاة حال المستفتي ١٣٩
مراعاة الحالة العامة للأسواق : المال المكتنز مثالا ١٤٠
مراعاة أحوال الناس وطبائعهم : التدرج في تحريم الربا ١٤١
الفصل الثالث: العلم ١٤٤
المبحث الأول العلم يُثبته زيادة درجة الاحتمال ١٤٥
المبحث الثاني العلم الحق درجات ١٤٦
المبحث الثالث علم الله وعلم غيره ١٤٨
الفارق بين لا يشعرون ولا يعلمون ١٥١
الفارق بين يعلمون ويفقهون ١٥٣
فقه القلوب ١٥٧
المبحث الرابع العلم واختلاف الناس بعد مجيئه ١٥٩
المبحث الخامس العلم أساس أي حضارة إنسانية والدِّين قوامه العلم ١٦٦
المبحث السادس الإيمان والعمل ١٨٣

الإيمان والعلم ١٨٣
العمل الصالح ١٨٥
مفاتح علم الغيب ١٨٦
الإيمان العقلي ١٩٣
الإيمان الحسي ١٩٥
الخاتمة ٢٠٣
المراجع ٢٠٧
صدر للمؤلف ٢١١

المقدمة

إن أول نزاع فكري حصل في الكون، هو عندما عصى إبليس أمر ربه، لما أمره والملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، فأطاعت الملائكة وعصى إبليس أمر ربه، معتقداً نفسه أفضل من آدم، وفسر ذلك برأيه، بأن الله فضله عندما خلقه من نار وخلق آدم من طين، ونقلت الآية الكريمة قوله: **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** (الإسراء: ٦١).

والفارق بين معصية إبليس ومعصية آدم، أن آدم عليه السلام سارع بالاعتراف بالذنب فاستغفر الله، فغفر له، قال تعالى: **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** (البقرة ٣٧). أما إبليس فاستكبر ولم يستغفر من ذنبه، فكان من الكافرين، قال تعالى: **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** (البقرة: ٣٤). والكبر والتكبر صفات ذميمة لا يجوز الاتصاف بها أبداً، لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: **(لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ)**.

إذاً، أودت طريقة تفكير إبليس به ليكون رجيماً مطروداً من رحمة الله: **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ** (الحجر: ٣٤). واعتقاد إبليس بأن الجِبلَّة هي أساس التفضيل، هو اعتقاد خاطئ، فالملائكة من نور وهو من نار وآدم من تراب، وما ذلك إلا لقلة علمه وضعف درايته وهوان حكمته، فذرية آدم عليه السلام – التي استهان

بها إبليس – قد ثبت حتى يومنا هذا: أنها مبدعة مبتكرة ووصل بها الأمر إلى ولوج الفضاء وسبر البحار والأرض، كما صَنّعت الآليات والآلات وأضافت لها الذكاء الصنعي، وأنشأت السدود الكبيرة والأبنية الشاهقة، وغير ذلك الكثير، وذلك باستخدامها العلم، كأداة لكل تلك الإنجازات، ومازال الباب مفتوحًا بلا حدود، لقول الله تعالى: **عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** (العلق: ٥)، وسيبقى الباب هكذا ما استخدم الإنسان والجن العلم كقوة لذلك النفاذ، لقول الله تعالى: **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ** (الرحمن: ٣٣).

التفسير والتأويل

وردت عبارتا التفسير والتأويل في كتاب الله تعالى، ففي حين انتشرت الأولى وذاعت عبر تاريخ الأمة، وكانت عنوانًا لمن حاول تفسير كلام الله وتوضيحه، قال تعالى: **وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** (الفرقان: ٣٣)؛ عُرفت الثانية، وكان انتشارها أقل، على الرغم من ورودها سبع عشرة مرة في كتاب الله مقابل مرة واحدة لكلمة تفسير، ومن ذلك قوله تعالى: **وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** (النساء: ٥٩).

و**التفسير لغة** من فسَّر الشيء، أي كشفه وأوضحه، وهو ضد الإبهام. قال الراغب الأصفهاني في المفردات: التفسير هو المعنى المعقول من اللفظ المُشكل.

أما **التفسير في الاصطلاح**، فعرَّفه الإمام الزركشي في (البرهان)، بأنه: علم يُفهم به كتاب الله المُنزّل على نبيه صلى الله عليه وسلم ببيان معانيه، واستخراج أحكامه، واستمداده من اللغة والنحو والبيان وأصول الفقه.

وبناء عليه، فالتفسير عند جمهور العلماء هو: بيان معنى اللفظ القرآني على وجهه الظاهر، كما يُفهم من لغة العرب وسياق الخطاب، ومن خلال ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضي الله عنهم.

أما التأويل؛ فله في اللغة معنى الرجوع والعاقبة، قال تعالى: **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ** (الأعراف: ٥٣)، أي مآله، واختلف العلماء في تحديد معناه الاصطلاحي، فقال الطبري: التأويل هو تفسير الكلام الذي يحتمل وجوهًا مختلفة، وبيان المعنى المراد من تلك الوجوه، وقال الآمدي: التأويل صرف اللفظ عن معناه الظاهري إلى معنى مرجوح بدليل، وقال القرطبي: التفسير أعم من التأويل، لأن التفسير هو بيان الظاهر والتأويل بيان الباطن المحتمل.

إذًا؛ فالتفسير هو البيان المباشر للمعنى الظاهر الذي دلّ عليه اللفظ، بينما التأويل هو اختيار أحد المعاني المحتملة غير الظاهرة بدليل معتبر.

لذلك قال ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير: التأويل في عرف المتأخرين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح بدليل يقتضيه، وأما في عرف السلف فكان التأويل بمعنى التفسير والبيان.

وبهذا فلفظ التأويل كان عند السلف مرادفًا للتفسير، كما في قوله تعالى: **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** (آل عمران: ٧)، أي تفسيره، ثم استعمله

المتأخرون بمعنى آخر، هو صرف الظاهر إلى المعنى المرجوح، مما أحدث تبايناً في الفهم.

والخلاصة: أن التفسير هو بيان مراد الله من كلامه على ظاهره، والتأويل هو اجتهاد في بيان المعنى غير الظاهر عند وجود قرينة تصرف النص إليه، ولهذا قال العلماء:

كل تفسير تأويل، وليس كل تأويل تفسير.

ذكر الطنطاوي في تفسير الآية: **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (آل عمران: ١٠٥): إن أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم والتابعين من بعدهم قد اختلفوا فيما بينهم في بعض المسائل التي لا تخالف نصاً صحيحاً من نصوص الشريعة، وتأولّها كل واحد أو كل فريق منهم على حسب فهمه الذي أداه إليه اجتهاده.

يهدف كتابنا إلى تأويل معنى العلم الذي ورد مراراً وتكراراً في كتاب الله تعالى كاجتهاد في بيان المعنى غير الظاهر، عند وجود قرينة تصرف النص إليه. وإن أهمية العلم واضحة جليّة في كتاب الله، دلّ على ذلك كثرة ورودها بمعانٍ عديدة وبأشكال مختلفة، وهذا ما أثار فضولنا ودعانا لهذه المسيرة التي علمنا مشقتها قبل أن نبدأ فيها، ولا نخفي خوفنا من الانزلاق، لذلك استعنا بالله وتوكلنا عليه، وبدأنا بحثنا هذا على بركة الله.

الفصل الأول: صناعة العلم

إن لصناعة العلم والفكر، أدوات منها؛ الكتابة والقراءة والدراسة والتأليف[1]، ولها أدوات؛ لإثبات الحقائق العلمية أو نفيها؛ ولها مصطلحات ذات دلالة محددة؛ يُفترض بالعاملين في مجال البحث العلمي التوقف عندها لوضعها في موضعها المقصود.

فالعلم له مدخلاته من البيانات والمعلومات، وله فرضياته، وله مناهج يسير السالك أو الباحث بمداخل مختلفة، وله مخرجاته سواء أكانت حقائق علمية بدرجات ثقة تتراوح بين الظن وغلبته وبين اليقين بدرجاته، أم يتم رفض فرضياتها كونها بدرجات شكٍ ووهمٍ أو حتى دونها.

[1] يراجع كتابنا: فقه المحاسبة الإسلامية - ج ١: المنهجية العامة: مبحث: أثر الحضارة الإسلامية في تطوير أدوات المحاسبة، مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، ٢٠٠٤، رابط.

المبحث الأول
مصطلحات ذات علاقة بالعلم عند أهل التفسير

ذكر الرازي مصطلحات[1] في تفسيره؛ ذات علاقة بالعلم، مثل المعرفة والفهم والفقه والعقل والدراية والحكمة؛ وأوضح المراد من كل منها. وذلك كالآتي:

المعرفة

إن من أدرك شيئًا وانحفظ أثره في نفسه؛ ثم أدرك ذلك الشيء ثانيًا، وعرف أن هذا المدرك الذي أدركه ثانيًا هو الذي أدركه أولاً، فهذه هي المعرفة؛ فيُقال: عرفت هذا الرجل، وهو فلان الذي كنتُ رأيته وقت كذا.

الفهم

هو تصور الشيء من لفظ المخاطب، والإفهام هو اتصال المعنى باللفظ إلى فهم السامع.

الفقه

هو العلم بغرض المخاطب من خطابه، يُقال فقهت كلامك أي وقفت على غرضك من هذا الخطاب؛ ثم إن كفار قريش لما كانوا أرباب الشبهات والشهوات؛ قال تعالى فيهم: **لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا** (الكهف: ٩٣) أي لا يقفون على المقصود الأصلي والغرض الحقيقي.

[1] التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، الباب ٢١، الجزء ١، الصفحة ٤٨٦

العقل

هو العلم بصفات الأشياء من حُسنها وقُبحها وكمالها ونقصانها؛ فإنك متى علمت ما فيها من المضار والمنافع صار علمك بما في الشيء من النفع داعيًا لك إلى الفعل، وعلمك بما فيه من الضرر داعيًا لك إلى الترك؛ فصار ذلك العلم مانعًا من الفعل مرة، ومن الترك أخرى؛ فيجري ذلك العلم مجرى عِقال الناقة المُتحكم بها.

الدراية

الدراية هي المعرفة الحاصلة بضرب من الحيل، وهو تقديم المقدمات[1]، واستعمال الروية، وأصله من دريت الصيد، والدرية لما يُتعلم عليه الطعن ...، وهذا لا يصح إطلاقه على الله تعالى لامتناع الفكر والحيل عليه تعالى.

الحكمة

الحكمة[2] هي اسمٌ لكل علمٍ حسنٍ، وعملٍ صالح، وهو بالعلم العملي أخص منه بالعلم النظري، وفي العمل أكثر استعمالاً منه في العلم، ومنها يقال أحكم العمل إحكامًا إذا أتقنَه وحكم بكذا حكمًا، والحكمة من الله تعالى خَلقُ ما فيه منفعةُ العباد ومصلحتهم في الحال وفي المآل ومن العباد أيضًا. كذلك حُدَّت الحكمةُ بألفاظٍ مختلفة؛ فقيل: هي معرفة الأشياء بحقائقها، وهذا إشارة إلى أن إدراك الجزئيات لا كمالَ فيه لأنها إدراكاتٌ متغيرة.

[1] الضروريات أو البديهيات
[2] تفسير الرازي الباب ٢١ ج ١ ص ٤٨٦

المبحث الثاني
أدوات إثبات العلم (الحجج والأدلة والبينات والبراهين)

استخدمت الآيات القرآنية عبارات عديدة للدلالة على المقدمات العلمية للحقائق، وجعلت لكل منها درجة تدلُّ عليها، كالحُجة، والدليل، والبيّنة، والبرهان والسلطان. وذلك كالآتي:

الحجة

الحجة أعم من البرهان، فقد تكون قوية، أو ضعيفة، وقد تُقام لإثبات الحق أو إقامة العُذر، أو لدفع المؤاخذة، قال تعالى: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ (النساء: ١٦٥)، فالحجة هنا ليست برهانًا قاطعًا بل هي ما يتمسك به الخصم ليعتذر أو يدفع اللوم، لهذا قال سبحانه: لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ (الأنعام: ١٤٩)، فبينّ أن الحجة قد تكون بالغة، أو تكون غير بالغة بخلاف البرهان الذي لا يوصف إلا بالقطع.

ذكر ابن عاشور: الحجّة ما يدُلّ على صدق المدّعي وحقّيّة المعتذر، فهي تقتضي عدم المؤاخذة بالذنب أو التقصير. والمراد هنا العذر البينّ الذي يوجب التنصّل من الغضب والعقاب.

ذكر الطنطاوي: الحجة: كما قال الراغب في مفرداته: الدلالة المبينة للمحجة، أي المقصد المستقيم.

الدليل

هو المؤشر، والدليل، كقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (الفرقان: ٤٥). أي جعلنا الشمس عليه مؤشراً ودليلاً.

ذكر الطنطاوي: ثم جعلنا بقدرتنا وحكمتنا الشمس دليلا عليه. وقال الجمل: الشمس برهان.

ذكر القرطبي: الشمس دليل أي حجة وبرهان.

البيّنات

عرفها ابن عاشور بأنها:

> الدلائل الَّتي فيها عصمة من الوقوع في الاختلاف إذا قُيِّضت لها الأفهام. فإذا لم يُقيّض للدلائل أفهام يُستدل بها، وقع الاختلاف والخلاف المفضي للاقتتال.

إذاً هي أداة الوصول إلى العلم الحق، وقد كانت سبباً للفصل بين مناصري البغي ودعاة الحق، فمع العلم الواسع للسحرة، لما رأوا براهين وحجج نبي الله موسى عليه السلام أي اليد البيضاء والعصا، تنازعوا بينهم، ففريق علم يقيناً أنها لا تكون من ساحر، وفريق آثر غير ذلك، لكن لما تحولت العصا إلى ثعبان ضخم وابتلعت سحرهم ثم عادت عصا، أيقنوا أن موسى على حق فوقعوا لله ساجدين من عظمة ما وجدوه منه، ولعلمهم بأن ذلك ليس سحراً.

قال تعالى: قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (طه: ٧٢)

ذكر السعدي: ولهذا لما عرف السحرة الحق، ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق، أجابوا فرعون: لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ، أي: لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب، على ما أرانا الله من الآيات البينات الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن ما سواه باطل.

ذكر البغوي: (مِنَ الْبَيِّنَاتِ) يعني من التبيين والعلم.

ذكر ابن كثير: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين.

ذكر ابن عاشور: إن سجودهم اشتمل على إيمانهم... وإنما آمنوا بالله حينئذ لأنّهم أيقنوا أن ما جرى على يد موسى ليس من جنس السحر لأنّهم أئمة السحر فعلموا أنّه آية من عند الله.

ذكر الطنطاوي: قال صاحب الكشاف: ما أعجب أمرهم، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود. ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود. فما أعظم الفرق بين الإلقاءين.

البرهان

هو الدليل الذي يوصل إلى اليقين، يسبقه فرضية ثم يكون بالحجة والدليل.

قال تعالى: وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (البقرة: ١١١).

ذكر الطنطاوي: يؤخذ من الآية الكريمة بطلان التقليد في أمور الدين، وهو قبول قول الغير مجرداً من الدليل، فلا ينبغي للإنسان أن يقرر رأيًا في الدين إلا أن يُسنده إلى دليل، كما أنه لا يقبل من غيره قولاً إلا أن يكون مؤيداً بدليل.

أما عدم صحة التقليد في أصول الدين: أي فيما يرجع إلى حقيقة الإيمان فالأمر فيه جليّ، لأنه يُكتفى في إيمان الشخص بأى دليل ينشرح به صدره للإسلام، وتحصل له به الطمأنينة، ... وأما التقليد في الفروع أي في الأحكام العملية، فالناس بالنظر إلى القدرة على تمييز الخطأ من الصواب درجات، فمن له قدرة على فهم الأدلة ومعرفة الراجح من الأحكام، لا يجوز أن يتلقى الحكم من غيره إلا مقرونًا بدليل، وإن كان قاصراً عن هذه الدرجة أخذ بما يُفتيه به العالِم المشهود له بالرسوخ في علم الشريعة، والمعروف بالمحافظة على لباس التقوى ما استطاع.

ذكر الطبري: البرهان والحجة والبيّنة، أي إحضار الحجة على دعواهم.

ذكر ابن عاشور: (**إِن كُنتُمْ**) أتى بإن المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم الصدق لاستدراجهم حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن البرهان، لأن كل اعتقاد لا يقيم معتقده دليل اعتقاده؛ فهو اعتقاد كاذب لأنه لو كان له دليل لاستطاع التعبير عنه، ومن باب أولى لا يكون صادقًا عند من يريد أن يُروج عليه اعتقاده.

قال تعالى: **يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** (النساء: ١٧٤).

ذكر الطنطاوي: المراد بالبرهان هنا؛ الدلائل والمعجزات الدالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما يُبلِّغه عن ربه. قال الرازي: البرهان هو محمد صلى الله عليه وسلم وإنما سماه برهانًا، لأن حرفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل. والنور المبين هو القرآن الكريم. وسماه نورًا، لأنه سببٌ لوقوع نور الإيمان في القلب.

ذكر القرطبي: يعني محمداً صلى الله عليه وسلم؛ عن الثوري؛ وسماه برهانًا لأن معه البرهان وهو المعجزة.

ذكر ابن عاشور: سمّى حكماء الإسلام أجَلّ أنواع الدليل، بُرهانًا.

قال تعالى: **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** (يوسف: ٢٤)

ذكر الطنطاوي: المراد برؤيته له: كمال إيقانه به، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين.

ذكر ابن عاشور: والرؤية هنا عِلمية لأن البرهان من المعاني التي لا ترى بالبصر.

قال تعالى: **وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** (المؤمنون: ١١٧)

ذكر الطنطاوي: أي لا دليل له.

ذكر البغوي: أي لا حجة له به ولا بينة.

قال تعالى: أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (النمل: ٦٤)

ذكر الطنطاوي: قل لهم أيها الرسول الكريم عند معارضتهم لك، أحضروا حجتكم وهاتوا برهانًا عقليًا أو نقليًا، على أن لله تعالى شريكًا في ملكه.

ذكر ابن عاشور: البرهان: الحجة. وإضافة البرهان إلى ضمير المخاطبين وهم المشركون مشير إلى أن البرهان المُعَجّزين عليه هو برهان عدم البعث، أي إن كنتم صادقين فهاتوه، لأن الصادق هو الذي قوله مطابق للواقع. والشيء الواقع لا يعدم دليلاً عليه.

وجُماع ما تقدم في هذه الآيات من قوله: آلله خير أما تشركون (النمل: ٥٥) أنها أجملت الاستدلال على أحقية الله تعالى بالإلهية وحده ثم فصّلت ذلك بآيات سورة النمل: ٦٠ حتى ٦٤: أمن خلق السموات والأرض... إلى قوله: قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين فابتدأت بدليل قريب من برهان المشاهدة وهو خلق السموات والأرض وما يأتي منهما من خير للناس. ودليل كيفية خلق الكرة الأرضية وما على وجهها منها، وهذا ملحق بالمشاهدات.

وانتقلت إلى استدلال من قبيل الأصول الموضوعة وهو ما تمالأ عليه الناس من اللجأ إلى الله تعالى عند الاضطرار.

وانتقلت إلى الاستدلال عليهم بما مكّنهم من التصرف في الأرض إذ جعل البشر خلفاء في الأرض، وسخر لهم التصرّف بوجوه التصاريف المعينة على هذه الخلافة،

وهي تكوين هدايتهم في البر والبحر. وذلك جامع لأصول تصرفات الخلافة المذكورة في الارتحال والتجارة والغزو.

وختم ذلك بكلمة جامعة لنعمتي الإيجاد والإمداد وفي مطاويها جوامع التمكن في الأرض.

البرهان يُثبت حقيقةً لا مجال لردها، حقيقة تبلغ من الوضوح حدًا يجعل الشك فيها عبثًا، فالبرهان في أصله نور يُظهر الشيء كما هو.

لذلك قال الله تعالى لموسى عليه السلام حين أخرج يده بيضاء من غير سوء: **فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ**، وسماهما برهانًا لأنهما آيتان قاطعتان لا يتطرق إليهما الاحتمال.

قال تعالى: **اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** (النساء: ٣٢).

ذكر الطنطاوي: البرهان: الحجة الواضحة النيّرة التي تُلجم الخصم، وتجعله لا يستطيع معارضتها. أي: فهاتان المعجزتان اللتان أعطيناك إياهما يا موسى، وهما العصا واليد، حجتان واضحتان.

ذكر الطبري: برهانان: آيتان وحجتان. وأصل البرهان: البيان.

قال تعالى: **أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ** (الأنبياء: ٢٤).

السلطان

السلطان هو كالبرهان مُضافًا إليه قوة التنفيذ

قال تعالى: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (آل عمران: ١٥١).

ذكر الطنطاوي: السلطان: الحجة والبرهان وسميت الحجة سلطانًا لقوتها ونفوذها.

أصل المادة يدل على الشدة والقوة ومنها السليط الشديد واللسان الطويل.

ذكر القرطبي: سلطانًا حجة وبيانًا، وعذرًا وبرهانًا.

ذكر الطبري: الحجة هي السلطان.

ذكر ابن عاشور: الحجّة والبرهان لأنَّه يتسلّط على النّفس.

قال تعالى: وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (النساء: ٩١)

ذكر السعدي: حجة بينة واضحة.

المبحث الثالث
طرق إدراك الحقائق بالمنهج القرآني

الإدراك[1] هو بلوغ الشيء غايتَه وهو أول الوصول إليه، والحقِيقَةُ[2] هي الشيءُ الثابتُ يقينًا التي لا تتغير بتغير الظروف، وإدراك الحقائق مؤداه إدراك حقيقة الإيمان يقينًا دون أدنى ريب، فالإيمان وحقيقته إشكالية عند كثير من البشر.

ذكر الحِميري في شمس العلوم[3]؛ الإِدْرَاك هو اللحوق، قال الله تعالى: **حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ**، وقال أيضًا: **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**، أي ملحوقون، وأدرك الغلامُ والجاريةُ: إِذا بلغا سن الرشد، والإِدراك: بلوغ الشيء إِناه وغايتَه.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب – بل أدرك – (**عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ**)، والباقون (**ادَّارَكَ**) أي تدارك.

وذكر أبو العزم في معجمه (الغني)[4]؛ أن (دَرَكَ) مصدر (أَدْرَكَ)؛ أي اِسْتَطاعَ إِدْرَاكَ خَبَايَا الأُمُورِ بفَهْمَهَا وَتَمْيِيزَ دَلَالَتِهَا.

أما عند خبراء التربية[5] فإن الإدراك؛ مجرد رؤية الكلمات أو التلفظ بها دون فهم ما تعنيه أو تدل عليه.

---

[1] شمس العلوم، نشوان بن سعيد الحميري، ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م
[2] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠م
[3] مرجع سابق، الحميري.
[4] معجم الغني، عبد الغني أبو العزم، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١م
[5] قاموس التربية الخاصة، د. عبد العزيز السيد الشخص، د. عبد الغفار عبد الحكيم الدماطي

أنزل الله تعالى سورة سُميت بسورة (الكافرون) وصفها المفسرون بالمفاصلة؛ لأنها تفصل بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ليدرك جميعهم القَطع لكل صلة وشبهة بين الإيمان والكفر وأهلهما.

كما قَطعت سورة (الإخلاص) الشك باليقين بوحدانية الله من كل ما نُسب إليه من ولد وشريك وغير ذلك؛ مما يتصف به الخلق من نقص، ليدرك الخلق جميعهم كمال الله تعالى المستغني عنهم؛ بينما النقص الموجود فيهم يجعلهم لا يستغنون عمن خلقهم.

وبناء عليه، لا يُعتدُّ بكثرة المجادلين في الحق لأن كثرتهم لا تُغني عن الحقيقة شيئًا؛ كقوله تعالى: (**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**)، (**وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**)، (**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**)، (**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ**)، (**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**)، (**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**)، (**وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**).

إن أول ما تلقاه آدم عليه السلام – وهو أول البشر – علمٌ لقنه الله إياه، يقول تعالى عز وجل: **لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** (النساء: ١٦٦). وبذلك فإن مصدر المعلومات الأولية عند أول إنسان هو ما تلقاه من ربه، وليس كما يَدّعي أهل الكلام بأن أوليات العلم هي البديهيات التي لا نقاش فيها، وبها يُحررون أغلب العلوم.

والإنسان من ذرية آدم أبو البشر يأتي إلى هذه الدنيا وهو لا يعلم شيئًا، والله عزّ وجلّ يُزوِّده بأدوات تحصيل العلم وإدراكه؛ قال تعالى الخالق البارئ: **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (النحل: ٧٨).

ثم دعاه خالقه لمشاهدة آلائه ونعمائه، مِن حوله بعدما خلق له حواسه، كما في الآية السابقة لتكون وسيلة من وسائل إدراكه:

- قال تعالى: **أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (النحل: ٧٩).
- قال تعالى: **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ** (النحل: ٨٠).
- قال تعالى: **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** (النحل: ٨١).

وقد تكررت مثل هذه الآيات بكثرة في كتاب الله تعالى.

ومن جهة أخرى؛ فإن نهاية كل إنسان، هي الوفاة والموت حتمًا وهذا حاصلٌ بالمشاهدة يقينًا؛ وعند موته، يُنتزع منه العلم فلا يأخذ معه شيئًا، يقول المولى عز

وجل: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (النحل: ٧٠).

ولله العلم، وله القدرة سبحانه وتعالى.

المبحث الرابع
الإدراك وعلاقته بغيره من المصطلحات

ميّز أبو هلال العسكري[1]، في معجمه (الفروق اللغوية) بين المصطلحات المتشابهة التي تتقاطع مع الإدراك، وأوضح تداخلها، ليَحسُن فهمها:

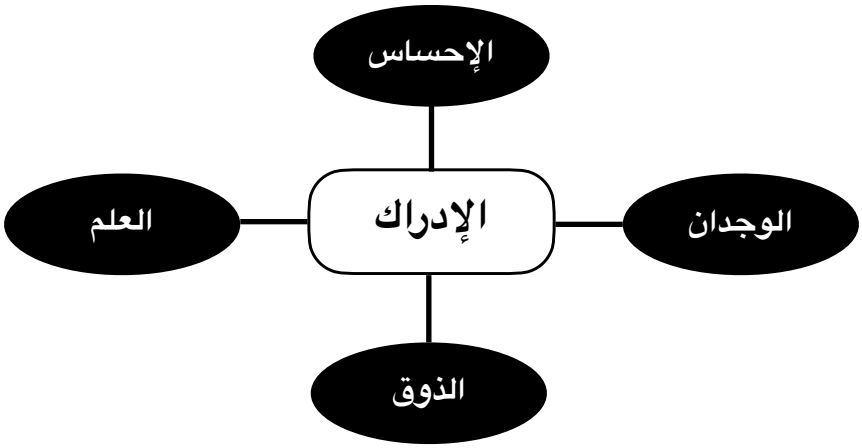

الإدراك والعلم

الإدراك موقُوف على أشياء مخصُوصة، وليس العلم كذلك، والإدراك التشيء على أخص أوصافه وعلى الجُملة والعلم يقع بالمعدوم ولا يدرك إلاّ الموجُود، والإدراك طريق من طرق العلم ولهذا لم يجز أن يقوى العلم بغير المدرك قوته بالمدرك، ألا ترى أن الإنسان لا ينسى ما يراهُ في الحال كما ينسى ما رآهُ قبل.

[1] الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، توفي: نحو ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م.

الإدراك والإحساس

يجوز أن يُدرك الإنسان الشّيء وإن لم يُحس به؛ كالشيء يُدركهُ ببصره ويغفل عنهُ فلا يعرفهُ؛ فيُقال إنّه لم يُحس به، ... قال تعالى: **فَلَمَّاأَحَسُّوابَأْسَنَا** (الأنبياء: ١٢)، وقال أيضًا: **فَتَحَسَّسُوامِنيُوسُفَ** (يوسف: ٨٧)؛ أي بإحساسكم.

الإدراك والوجدان

الوجدان في أصل اللُّغة لِما ضاع ولا يُعرف موضعه، يُقال نشدت الضّالة إذا طلبتها؛ فإذا وجدتها قلت وجدتها وجدانًا، اُستدلّ على أن وجدت ههُنا إنّما هُو للضالة والإدراك؛ فتقول وجدت الضّالة ولا تقول أدركت الضّالة... وأصل الإدراك في اللُّغة بُلُوغ الشّيء وتمامه ومنه إدراك الثّمرة وإدراك الغُلام وإدراكك من تطلب؛ كقوله تعالى: **قالَأَصْحَابُمُوسَىإِنَّالَمُدْرَكُونَ**(الشعراء: ٦١)؛ فالوجود هُو العلم بالموجود.

الذّوق وإدراك الطّعم

الفرق بين الذّوق وإدراك الطّعم؛ أن الذّوق مُلابسة يَحسُ بها الطّعم، إدراك الطّعم يتبينّ به؛ يُقال ذقته فلم أجد لهُ طعمًا.

المبحث الخامس
حكمة رد العلم إلى الله

لطالما خطر في فكري تساؤل فكرت به مراراً، وسألته بعض الأصدقاء والزملاء من العاملين في مجال البحث العلمي، واستمر ذلك في بالي سنين طويلة، ولربما جاء الوقت لبيانه وتوضيحه. والسؤال هو: **ما حكمة زوال العلم بزوال صاحبه بعد قضائه عمراً طويلاً في تحصيله ومكابدته؟ ولماذا لا ينتقل العلم بين الناس كالإرث؟**

وقد بحثت عمن خاض في هذا الأمر، فوجدت بعضه عند الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال)، ووجدت بعضه عند ابن عربي في كتابه (الفتوحات المكية).

فالغزالي الذي شاع صيته في بغداد (عاصمة الدنيا آنئذ)، اعتزل الناس سنين طاف خلالها البلاد لدراسة أحوال الفِرق المختلفة في اعتقادها التي نسبت كلٌ منها الحقيقة لنفسها دون غيرها؛ ثم خرج بكتاب لا يتعدى الستين صفحة من القطع الصغير لخص فيه ما آلت إليه رحلته، بقوله: (إن العلم نور يقذفه الله في القلب).

وقال الإمام مالك[1]: علم الباطن لا يعرفه إلا من عرف علم الظاهر فمتى عَلم الظاهر وعمل به فتح الله عليه علم الباطن، ولا يكون ذلك إلا مع فتح قلبه وتنويره، وقال:

[1] فيض القدير شرح الجامع الصغير من احاديث البشير النذير، محمد عبد الرؤوف المناوي ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، ج ٥، ص ٤٥١.

ليس العلم بكثرة الرواية (إنما العلم نور يقذفه الله في القلب)، ويشير إلى علم الباطن.

وفي حديث مرسل؛ أشار عليه الصلاة والسلام حين سُئل عنه، فقال: (**نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له أو ينفسخ**)، فقالوا: هل لذلك أمارة يُعرف بها، فقال: نعم، (**الإجابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله**)[1].

أما الشيخ محيي الدين بن عربي فقد ذكر مراتب العلوم، ووضع شروطًا وصفاتٍ للحصول على العلم من الله والأسرار الإلهية والمعارف الربانية، وهي أن يكون طالب العلم: متأهبًا وطالبًا للمزيد، ومتعرضًا لنفحات الجود بأسرار الجود، وسبيل ذلك:

- لزوم الخلوة والذِكر.
- تفريغ المحل من الفِكر.
- الاعتراف بالفقر عند باب الغني.

والعلم عنده يؤخذ من مصدرين:

١. ميت عن ميت؛ أي بشر عن بشر.

٢. ميت عن حي لا يموت، أي بشر عن الذي لا يموت، وهو الله تعالى.

---

[1] الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، المتوفى ١٠٣١ هـ، حققه أحمد مجتبى، دار العاصمة بالرياض، ج ٢، ص ٦١٩.
أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير من حديث أبي جعفر مرسلا، وأخرجه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان موصولا من حديث ابن مسعود.

وبذلك فترتيب العلوم عنده لها ثلاث مراتب[1]: علم العقل، وعلم الأحوال، وعلم الأسرار.

وأعتقد أن جواب تساؤلي كما خَبِرتُه من مسيرة علمية تجاوزت العشرين عامًا؛ أن درب العلم هو درب الأنبياء والصالحين، فالأنبياء صلى الله عليهم يؤتيهم الله تعالى العلم والحكمة، أما غيرهم من البشر؛ فإن دربه عندهم شاقٌ ومتعبٌ ولا يصله إلا العازمون على كسبه، الجادون في طلبه، المخلصون ظاهرًا وباطنًا في تحقيقه لوجه الله تعالى. ولابد لطالب العلم من أن يسأل الله تعالى علمًا نافعًا ليستنير بعلم الله تعالى؛ فقد روى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: **(سَلوا اللهَ علمًا نافعًا، وتعوَّذوا باللهِ من علمٍ لا ينفَعُ)**[2]. أما من طلبه من غير الله فهو رد عليه؛ لرواية عبد الله بن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من اقتبسَ عِلمًا منَ النُّجومِ اقتبسَ شعبةً منَ السِّحرِ زادَ ما زادَ)**[3]. وقد ذمَّ الله تعالى من تتبع العلم الضارّ؛ فقال المولى عزّ وجلّ: **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ** (البقرة: ١٠٢)، فالعلم الضارّ يَحرفُ الإنسان عن عبادة الله.

---

[1] يمكن الاستزادة والتفصيل بالعودة إلى كتاب الفتوحات المكية.

[2] سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار الفكر ببيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه ابن ماجه في كتاب الدعاء باب ما تعوذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج ٢، ص ١٢٦٣، وإسناده صحيح في الزوائد، رجاله ثقات.

[3] سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ابن ماجه، كتاب الأدب، باب تعلم النجوم ج ٢ ص ١٢٢٨، وكتاب الطب، باب في النجوم، ج ٢، ص ٤٠٨،

وقد حرص أهل العلم على قيد العلم وتسطيره حتى قال البعض إن العلم في السطور لا في الصدور؛ لكن العلم حتى لو سُطّر وقُيّد في الكتب، فإن من سيبدأ رحلته به سيكون له حظٌ وافرٌ من التعب والوصب.

ومن طُرق الحفظ؛ فكرة اختراع قواعد البيانات Data Base فمراكز البحث العلمي التي تضم ثلة من العلماء؛ تَفقد بموت أحدهم إرثًا وافرًا من العلم، فجاءت فكرة تفريغ البيانات والمعلومات في قاعدة بيانات لتخزين ما يحفظه العالم لتعويض النقص إن حصل.

ثم كان التفكير باختراع الروبوت أو الآلة الناطقة لتضم خبرات أولئك العلماء العاملين، لمساعدتهم في إنجاز مهام تُوكل لتلك الآلات، فنشأ التعلم العميق وتعليم الآلة والذكاء الصنعي وعلم البيانات.

وما زال الإنسان مجتهداً في إيجاد الوسائل الأفضل لتكون معينًا ومساعداً له.

لأجل ذلك لا يصح أن يكون الإنسان إمعّة؛ وقد نبَّه عليه الصلاة والسلام الإنسان؛ ألا يكون تابعًا خاوي الحيلة، ويترتب على هذا: البحث على طريق الإيمان بحثًا حقيقيًا يُوصله لكُنهِ فيُمسك به ولا يتركه؛ لأنه المنجي من بلاءات هذه الدنيا واختباراتها وفتنها، قال المولى عز وجل: **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** (العنكبوت: ٢).

المبحث السادس
طرق انتقال العلم

لابد من نقطة بدأ فيها كل شيء، فهذا هو منطق التفكير البشري، وعليه تكون التساؤلات التالية:

- أين بدأت رحلة العلم؟
- من علّم من؟
- كيف انتقل العلم بين الخلق؟

هذه أسئلة يحتاج الإنسان أن يُعمل نظره فيها لإشباع رفع جهله، وشغف اطلاعه، وفي هذا المبحث نحاول بيان ذلك باستقراء كتاب الله تعالى وتدبره؛ فقد قَصّ علينا رب العباد قَصصاً لم نكن لنعلم عنها لولا تفضله علينا بذكرها في قرآنه الكريم، أو بتعليمها لرسوله الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم؛ منها ما فيه ذكر أحداث جرت قبل خلق الإنسان نفسه؛ بل قبل خلق أي أحد من الخلق كائناً من كان، ومنها مما سيكون في المستقبل، وما بعد الحياة والممات.

تعليم الملائكة

حكى لنا ربُّ العالمين عن حواره مع الملائكة عليهم السلام لنتلمس مبدأ العلم وبداية انتقاله. وقد قصّ علينا الحدث الذي لم نكن لنعلم عنه شيئًا لولا أن تفضل علينا بذكره، قال تعالى: **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا**

أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (البقرة : ٣٠) .

حوار لم نشهده نحن البشر بما فيهم آدم عليه السلام، وكان من الممكن أن يبقى هذا الحدث دون علمنا، لكن الله تعالى أراد لنا أن نشهده كخبر منقول من خلال رسوله أمين الوحي جبريل عليه السلام من الملائكة، ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام من البشر.

يفيد هذا الخبر؛ بأن الله هو بادئ القول، لأنه عليم كما وصف ذاته العلية في غير موضع. والقول موجهٌ للملائكة عليهم السلام وقد أخبرهم عزّ وجلّ؛ بأنه جاعل في الأرض خليفة، وعَلَّمَ الملائكة، وبناء على ما تعلموه من ربّ العزّة، أجابوه ظنًا منهم، بأن القضية محصورة بالتسبيح والتقديس وهم قائمون بهذا، فكان جواب الله تعالى بأن عنده من العلم ما لا يعلمونه؛ فهم متلقون للعلم عاملون بما علموه، وقد خلق الله تعالى الملائكة دون حاجات تخصهم دونًا عن غيرهم من الخلائق فلا يجوعون ولا يعرون ولا يحتاجون.

إذًا بدأ الأمر بالقول والتلقين من عليم، ثم محاكمة للقول، واستنباطٍ من قبل ملائكة علّمهم العليم من علمه قياسًا على علمهم، فلم يصيبوا بما استنتجوه. دلّ ذلك على أن الله قد أعطى ملائكته الكرام علمًا محدودًا لا اجتهاد فيه، واختبر الله تعالى علمهم المحدود؛ بعلم آدم المحدود به؛ بالمقابلة والسؤال بقوله تعالى (أَنبِئُونِي) . لذلك لّما أنبأهم بخلق آدم عليه السلام ليكون خليفة في الأرض، وكان الله قد أعلمهم بما يمكن أن تفعله ذرية آدم عليه السلام من البشر، سارعت

الملائكة قائلين – حسب علمهم الذي يعلمونه – : **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**، فقال لهم عزّ وجلّ: **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**، ويكأن قضية العلم ومدى حصوله للمخلوقات من ملائكة ومن هم دونهم من المخلوقات قضية جدلية، فالعقل يقرر واللسان ينطق بما يريده العقل استناداً للقاعدة المعرفية التي يعلمها هذا الكائن.

لقد جرى كل ذلك الحوار بين خالق عزيز وبعض خلقه من الملائكة الكرام، قبل خلق آدم عليه السلام.

وكذلك جاء في رواية مالك بن صعصعة الأنصاري في حديث شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم: (**... فَيَسْتَبْشِرُ به أَهْلُ السَّمَاءِ، لا يَعْلَمُ أَهْلُ السَّمَاءِ بما يُرِيدُ اللَّهُ به في الأَرْضِ حتَّى يُعْلِمَهُمْ ...**)[1].

دليل على أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمها الله تعالى، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (**حتَّى يُعْلِمَهُمْ**).

تعليم آدم عليه السلام أول البشر

بعد أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام أبي البشر وهو أول مخلوق إنسي كما أنبأنا الله تعالى في غير آية كريمة، بدأت مرحلة تعليمه، فالتعليم عملية لازمة للمخلوق حتى يرتقي؛ وكلما زاد عِلْمُ الإنسان زاد ارتقاؤه، ما أخلص عمله، قال تعالى: **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** (الزمر:

[1] رواه أنس بن مالك، صحيح البخاري، الحديث رقم ٣٥١٧. وللحديث عدة روايات.

٩)؛ فالاستواء غير محقق بين من يعلم وبين من لا يعلم؛ بما أوتوه من عقلٍ مدركٍ مميِّزٍ ثم بما تزودت به عقولهم من معلومات قابلة للتذكر.

لقد تمت العملية التعليمية لآدم عليه السلام مباشرة من الله عز وجلّ الذي قال عن ذلك: **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**، ولربما المقصود كل ما يلزم بني البشر من علم كالصور والأشكال واللغات ... الخ[1].

ثم اختبر الله تعالى ملائكته بأن طلب منهم أن يُخبروه عن الأسماء التي علّمها لآدم عليه السلام؛ ليريهم أثر العلم المحدود نسبيًا، قال تعالى: **ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (البقرة: ٣١).

فكان رد الملائكة عليهم السلام بأن أعلنوا محدودية علمهم كما تلقوه من ربهم عزّ وجلّ، وذلك بقوله تعالى: **قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** (البقرة: ٣٢) وقد ردوا كلَّ العلم – بصيغة اسم الفاعل العليم – لله عزّ وجل وأضافوا صفة الحكيم له للدلالة على أن العلم يحتاج الحكمة، وأي انفصال بينهما مؤداه إشكال نتعرض له لاحقًا.

ثم طلب الله تعالى من آدم عليه السلام أن يُنبئ الملائكة الكرام بأسمائهم أي بما تلقاه من رب العالمين من بيانات: **قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** (البقرة: ٣٣)، لقد قال المولى عز وجل لملائكته مُذكرًا إياهم بقدرته:

[1] هذه المرحلة نفسها تتم بالتعلم العميق للآلة لإكسابها الذكاء الصنعي

أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ، والقول يكون من عالم بالشيء مدركٍ لمعناه – تعالى الله عن التشبيه –، والإدراك (كما ذكرنا) هو بلوغ الشيء إِناه وغايتَه، فأضاف الله تعالى علم الغيب لذاته العليّة ليعلم المخاطَب بأنه تعالى محيط إحاطة كاملة بكل شيء، في كل مكان فهو المتحكم الآمر الناهي.

هكذا بدأت عملية نقل العلم، فالعليم جلّ في عُلاه هو العالِم لكل شيء، خلق الخلق، وعلّمهم من علمه حسب حكمته جلَّ وعلا، فللملائكة علمهم، وللإِنسان علمه، ليقوم الكون كما رُسم له؛ فلا يخرج شيء عن ذلك قيد أنملة. وهذا حال باقي الخلائق كالجبال والسماوات والأفلاك والأرضين والحيوانات والنباتات وكل شيء، ومن ذلك سؤال الله تعالى بعض مخلوقاته حَمل أمانة القيام بإِعمار الكون؛ فاعتذرت السموات والأرض وحملها الإِنسان، قال تعالى: **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**، وبذلك تُرك الاختيار للإِنسان دون الخلق أجمعين، ووصفه ربه بأنه كان ظلومًا جهولاً، قال ابن عباس[1]: ظلومًا لنفسه جهولاً بأمر الله وما احتمل من الأمانة.

[1] لباب التأويل في معنى التنزيل (تفسير الخازن)، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير الخازن، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م، ج ٥، ص ٢٨٠.

التعليم بإقرأ

إن الفعل الأول الذي طلبه الله تعالى من رسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل عليه السلام أن (**إقرأ**)، أورد البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: (**... اقْرَأْ، قالَ: ما أنا بقارِئٍ، قالَ: فأخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، قُلتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، فَقُلتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ...**).

وهذا فعلٌ اعتاده الناس؛ بأن تكون القراءة لما هو مكتوب، فكان ردّ المصطفى صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارئ – فهو أُميٌّ لا يعرف القراءة – كررها جبريل عليه ثلاثًا؛ ثم تابع عليه السلام تلاوة الآيات المنزلات؛ ليدرك رسول الله عليه الصلاة والسلام أن القراءة تكون شفاهةً كما تكون من كتابةٍ؛ فقرأ كما علّمه جبريل عليه السلام، فكان قرآنًا كريمًا يقرؤه المسلمون العرب ويقرؤه من لا يجيدون العربية فيقرؤونه رسمًا، ويحفظونه جميعًا، ويجوّدون تلاوته آناء الليل والنهار. كما تكون القراءة بآلاء الله ومخلوقاته. وكم من اختراع اخترعه البشر بتتبعهم لكثير من المخلوقات والأمثلة كثيرة.

إن القراءة هي أداة العلم وسبيله، ويكأنّ الله يقول للناس تعلّموا؛ فالعلم سبيل المعرفة التي تُوصل الإنسان إلى معرفة خالقه والإيمان به؛ فلا يكون العالِم عالِمًا إلا إذا أذهب جهله باكتساب المعرفة، وقد جعل الله تعالى جهات الاكتساب متعددة؛ فقد أعطى مخلوقاته حواسًا لتشعر وتتفاعل مع محيطها البيئي وجعل خلف تلك

الحواس سيالات عصبية تنقل الاحساسات إلى مركز الإدارة وهو العقل؛ ليُحاكِم ويُقرر، ثم يُعيد الأمر إلى الحواس، لتتخذ الإجراء المناسب.

الحواس أدوات تعلّم

تختلف درجة الحواس وتختلف أنواعها بين المخلوقات؛ فهي ذات قرون استشعار عند بعض الحيوانات، واستشعار صوتي عند غيرها، واستشعار لوني وبصري عند غيرها، وقد يكون الاستشعار بالاحتكاك، أو بالقوة، ... الخ، وبعض الكائنات لديها أكثر من حاسة مُميِّزة، كما يمتاز بعضها بحواس مرهفة جداً أو دون ذلك. وكذا حال الإنسان ففيه ما في غيره من الكائنات؛ فجميعهم خلق الله تعالى، خَلقَهم وجعل لكل منهم دوراً في هذه الحياة قرره بذاته العليّة، سواء كانوا مجرات أو نجوماً وأفلاكًا، أو دودة في باطن الأرض أو سمكة في قعر النهر أو حوتًا في بطن البحر، أو جبلاً شاهقًا أو سماء وارفة أو ريحًا صرًا ... وهو القائل سبحانه وتعالى: **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** (المدثر: ٣١).

العقل والتعلّم بالمحاكاة

إن لمركز القرار عند كل كائن طبيعته التي تخصه، والتي لم يكتشف العلماء من البشر عنها إلا القليل القليل رغم ما يدعيه البشر من تطور وتقدم، فقد أخبرنا الخالق عزّ وجلّ بأن كثيراً من الخلق هم أمم أمثالنا، ولكن لا نفهم تسبيحهم وأفعالهم ولغاتهم وبالتالي مكوناتهم الخَلقية. قال تعالى: **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** (الأنعام: ٣٨). وقال تعالى: **تُسَبِّحُ لَهُ**

السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (الاسراء: ٤٤).

لقد حكى الله تعالى لنا الحديث الذي دار بين النمل، وأسمعه لنبيه سليمان عليه السلام عندما توقف بجيشه قرب مسكنهم، قال تعالى: حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(النمل: ١٨).

فأنّى لنملة أن تقول؟ والقول فيه عقل وفهم.

وأنّى للنمل أن يفهم مقالها؟ فكيف عقلوه وابتعدوا عن طريق الجيش؟

وكيف لنملة أن تدرك أن بنيتها زجاجية؛ فالتحطيم في لغة العرب يكون للزجاج.

وأنّى للنمل أن يعلم كيف يبني بيوته؟ وأن ينتقي من المؤن ما يغذيه ويكفيه بحسب البيئة التي هو فيها؟ وكيف يتنقل ويتحرك بحثًا عن أشيائه من طعام وغيره؟ وكيف يعود لبيته؟

ولشدة دقة خوارزمياته الحاكمة لسلوكه صار عند أهل الاختصاص ما يُعرف بخوازرمية النمل Ant Algorithm ومثيلها خوارزمية النحل Bees Algorithm.

المبحث السابع
طرق كسب العلم الغيبي

قال الله تعالى مُثبتًا وحدانيتُه في الخلق: **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ** (النبأ: ٥١)، والإنسان كائن من مخلوقات الله تعالى وهو كائن ضعيف كما وصفه خالقه: **وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا** (النساء: ٢٨)، وهو لم يشهد خلق الكون ولا خلق نفسه؛ فكل ذلك بالنسبة لهذا الكائن الضعيف مسائل غيبية، لا ينفع في التحقق منها المنهج التجريبي، بل لابد من خبر الخالق نفسه الذي يعلم كيف خلق تلك المخلوقات. ويُعتبر الحدس والتخمين في إثبات تلك الحقائق مضيعة للوقت.

ذكر الطنطاوي في تفسيره أن: الغيب مصدر غاب يغيب، وكثيرًا ما يُستعمل بمعنى الغائب، ومعناه: ما لا تُدركه الحواس، ولا يُعلم ببداهة العقل.

لقد جاءنا الخبر اليقين متواترًا من الخالق نفسه في قرآنه العظيم الذي: **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** (الشعراء: ١٩٣)، إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذي بدوره أبلغه للناس بوصفه رسول لا ينطق عن الهوى: **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** (النجم: ٣).

الحقائق العلمية اليقينية في سورة الفاتحة

سورة الفاتحة هي السورة الأولى ترتيباً في القرآن الكريم، قال تعالى: **بسم الله الرحمن الرحيم * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** (الفاتحة: ١ – ٧).

إنها سورة تُرسي الحقائق العلمية اليقينية؛ بأن الله هو رب العالمين وهو محمود ورحمن رحيم، وهو مالك يوم الدين؛ لذلك يعبده المؤمنون بتلك الحقائق المذكورة، وحَقٌ لمن هذه صفاته أن يُعبد، وإذا عملوا استعانوا به لقدراته غير المتناهية، واستعانوا به للهداية للطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، لأن الطريق المستقيم هو أقرب الطرق للسالكين العاملين، بينما الطرق المعوجة الملفوفة مؤداها إضاعة لجهد العامل ووقته، وقد تعاقب الناس منذ أول الخليقة على تلك الاستقامة الموصلة للحق، استثني منها الذين غضب الله عليهم لكفرهم وضلالهم، فالكفر والضلال هما عكس الإيمان الذي يزيده العلم يقيناً؛ بينما يزيد الجهل الكفار والضالين بُعداً لاتباعهم الطرق الملتوية كثيرة الالتفاف، وهذا أشبه بمن فقد البوصلة وضاع في خضم متاهةٍ حتى صَعب عليه المخرج.

فكيف للإنسان أن يهتدي لطريق الإيمان الصحيح؟ وكيف له أن يتجنب مسالك المغضوب عليهم والضالين حتى لا يهوي في العذاب المهين؟

إذاً لابد لكل إنسان أن يبحث عن الطريق الصحيح، ولا يَسلم اختياره في التقليد؛ فقد يضلّ بضلال من اتبعه، كما لا ينفعه عذر ولا سبيل.

عناصر الإيمان والضلال في سورة البقرة

تأتي السورة الثانية ترتيباً في القرآن الكريم وهي سورة البقرة لتشرح الإيمان والضلال بأساليب علمية مزجت بين المنهجين العقلي والتجريبي بمختلف مداخلهما على مرّ العصور.

فالآية الثانية من السورة تخبر أن القرآن الكريم لا ريب فيه والريب أدنى درجات الوهم الذي بدوره أدنى درجات الشك وهو أدنى درجات الظن المُورث للوهم. وتقدم هذه الآية تحدياً مفتوحاً لكل قارئ يدّعي العلم والمعرفة ممن يرغب بنقد هذا الكتاب شكلاً أو مضموناً، وهذه أعلى درجة ثقة يمكن أن يستوعبها العالمون، وستأتي لاحقاً آيات تضع هذا التحدي على المحك، قال تعالى: **الم*ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** (البقرة: ١ – ٢).

ثمرات الإيمان بالغيب

إن صفات المتقين أنهم مؤمنون بالغيب، مع أن الغيب غائب عن المشاهدة الحسية؛ لكن المتقين استنبطوه بعقولهم وبصيرتهم بعدما صدّقوا الخبر الذي أبلغهم إياه رسول الهدى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى جلّ في علاه؛ حتى صار كالشاهد المشاهد عَياناً. وأثمر ذلك بأن:

- أورثهم الإيمان؛ عملاً وَجب عليهم، كالصلاة، وذِكر الله شكراً وحمداً؛ طاعة له لصفاته العليّة التي ذكرتها سورة الفاتحة.
- أنفقوا مما رزقهم خالقهم، وهذا فيه جانب إيماني حيث أنهم علموا غيباً أن الرزق من الله تعالى بوصفه الرازق، وعملوا؛ بأن أنفقوا من ذلك الرزق، كما أتت بذلك آيات في سور عديدة، قال تعالى: **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (البقرة: ٣).
- أورثهم العلم الذي كان سبيل الإيمان عندهم؛ إيماناً جاءهم خبره نقلاً؛ جيلاً عن جيل، وذكره القرآن الكريم توثيقاً صحيحاً غير محرّف.
- أورثهم العلم إيماناً بحقائق يقينية بأمور غيبية أُخروية جاءت تفاصيلها في آيات تاليات في سور عديدة، قال تعالى: **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** (البقرة: ٤).

لذلك وصفهم ربهم؛ بالمهتدين المفلحين لثمرة تفكيرهم الناجم عن علمٍ تحول إلى عملٍ صالح مشهود لهم، قال تعالى: **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (البقرة: ٥).

المخادعة والإفساد

إذاً يحتاج الإيمان علماً، أما المخادعة والإفساد؛ فيغيب عن فاعلها العِلم، ويكون حال المخادع والفاسد عدم الشعور بذلك، وكلمة الشعور توضح أنه متعلق بالحواس؛ فهو تجريبي مما قد يُعطّل الاستنباط الذي هو وظيفة العقل، قال تعالى:

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (البقرة : ٩)، وقال : أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (البقرة : ١٢)، بالمقابل فإن الإيمان يحتاج إلى العلم الصحيح، وليس إلى الشعور، قال تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (البقرة : ١٣)، فوصفوا المؤمنين بالسفاهة حسب فهمهم، لكن الله نفى عنهم العلم بأنهم لا يعلمون .

إن نتيجة المخادعة والإفساد والسفاهة هي الضلال عن الحقيقة وخسارة العملية التي شبهها الله بالتجارة الخاسرة؛ لأنهم اشتروا وهماً فأضاعوا الثمن الذي دفعوه بما تضمنه من ربح، قال تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (البقرة : ١٦) .

ثم ضرب الله مثلاً بما فعلوه، والمثلُ أداة تجريب لمنهجٍ تجريبي مؤداه : أن من عطّل الاستنباط للوصول إلى حقيقة الإيمان واكتفى بما وصلت إليه تجاربه المحدودة أذهب مفعول حواسّه من نظر وسمع وحس، قال تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (البقرة : ١٧ – ١٨) .

إثر ذلك عاد الخطاب التذكيري للناس عامة بأن اعبدوا الخالق الذي خلقكم وخلق البيئة لعيشكم فيها، قال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ

وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (البقرة: ٢١ – ٢٢).

ثم يأتي التحدي العلمي لمن كفر وضلّ بعد أن أثبت الله البراءة لكتابه من كل ريب، فمن استطاع أن يأتي بمثله فليفعل، وإلا فالعقاب الشديد سيكون لمن زعمه وتصدى له، قال تعالى: وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (البقرة: ٢٣ – ٢٤).

جزاء الإيمان بالغيب

إن جزاء من آمن بالغيب ثم أتبع إيمانه بالعمل الصالح جنات وليس جنة واحدة، وهذا الجزاء أيضًا هو خبر صادق وصلنا متواترًا عن الله تعالى نقله جبريل الوحي عليه السلام من خلال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق، قال تعالى: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: ٢٥).

ضربُ المثل منهج تجريبي

ضربُ الله تعالى مثلاً بعوضةً؛ مكتفيًا بأضعف مخلوقاته دلالة على عظمته جلّ في علاه؛ مثلٌ يمكن تتبعه بالمشاهدة الحسية فيُقاس عليه، وإن نَقْصَ علم السامع للمثل أو سَعته هي التي تزيد يقينه يقينًا وتدفع الشك وما دونه؛ وقد أتت الاكتشافات العلمية لتُظهر مدى عظمة هذا المخلوق الصغير جداً بقدراته العظيمة، ويعلم المختصون أن المبتكرات كلما صغر حجمها زادت تقنياتها؛ فكيف إذا صغر حجمها وازدادت وظائفها؟.

لذلك إن الذين كفروا، وبسبب جهلهم أي لعدم طَرقِهم للعلم، عُميّت عليهم الحقيقة فضلوا، أما من آتاه الله العلم والحكمة فقد زاده المثال هدى بأن زاد يقينه ثباتًا، قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ** (البقرة: ٢٦).

مثلٌ آخر ضربه الله تعالى لخلقه الذين يشهدون بأمّ أعينهم كل يوم ولادات جديدة وموت آخرين، كدليل مشهود بالعين والحس ليساعدهم على الإيمان، حيث تنتقل الآية إلى الاستنباط بأن هذا الذي تشهدونه سيتكرر بالبعث يوم القيامة وسترجعون إلى الله الخالق البارئ، ويترك المثل المضروب التساؤل مفتوحًا لكل من قرأ الآية المكتوبة – والقراءة أداة تعلّم –، أو بالمشاهدة والمعاينة – وهذه أيضًا أداة تعلم –،

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٨).

العلم الغيبي مصدره الخبر اليقيني

إن مسرح العقل وميدانه هو العلوم التجريبية حيث تكون مادة البحث بين يديه أما العلم الغيبي، فلا يمكن أن يكون حقيقة علمية لاستحالة التحقق منه والتجربة عليه.

ومثاله[1] أن الله تعالى أخبرنا أن الإنسان الأول خلقه سبحانه وتعالى من سلالة من طين، ومرة أخبرنا أنه من تراب، ووصف الطين بأنه حمأ مسنون، ومرة من صلصال من فخار، وهذه كلها مراحل صنعية؛ فالتراب إذا جاء عليه الماء صار طيناً والطين إذا بقي مدة حتى يعطب وينتن؛ صار حمأ مسنوناً، وإذا تُرك صار صلصالاً كالفخار؛ فأنّى للعقل أن يتحقق من هذه الصيرورة بالتجربة؟

إن الله تعالى يعرض دليلاً مُحسِّناً يجعله دالاً على أمر غيبي؛ فنحن لا ندري كيف جاءتنا الحياة، لكننا نعلم يقيناً بأننا نموت؛ فجُعل الموت ظاهرة حسية ووسيلة للتصديق بالظاهرة الغيبية التي لم نرها. فإذا مات الإنسان فأول ما يخرج منه الروح التي أودعها الله فيه، ثم يتصلب جسده الميّت، وهذه هي الصلصالية أو الفخارية، وهي المرحلة الثالثة التي أعلمنا بها الله تعالى، بعدها ينتن جسده ويتحلل، وهذا هو الحمأ المسنون، ثم تتبخر المائية التي في جسده وتتحول العناصر الأخرى لتراب،

[1] مقتبس من خواطر الشعراوي، سورة النبأ.

وهذا مشهد يشهده الناس. لذلك إذا قال الله تعالى بأني خلقت الإنسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون ومن فخار ثم نفخت فيه الروح؛ فَهمنا كيف تذهب منه الحياة بطريقة العود على البدء، يقول تعالى: **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ** (الأنبياء: ١٠٤)؛ وبذلك يَسهل فهم كيف جاءتنا الحياة؛ لنتوصل بالموت إلى صدق الله تعالى فيما أخبر فيه عن الحياة.

وعرض الله تعالى لنا دليلاً آخر أمكن لحظه بعد حدوث التطور العلمي في التصوير، فقال عطفًا على أصل خلق الإنسان الأول: **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ** (المؤمنون: ١٢)، ثم أتبع الله تعالى ذكر قصة خلق كل إنسان بعد الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام بقوله: **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** (المؤمنون: ١٣-١٤)، وجميع هذه المراحل الخَلقية صارت محسوسة ومنظورة بالتصوير الشعاعي.

قال ابن كثير في تفسيره: وبذلك صيّر النطفة، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الثندوة[1] فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة. وقال عكرمة: وهي دم. ثم خلق العلقة كالبضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم شكّلها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

[1] الثندوة: ثَدْيُ الرجل

قال الله تعالى: **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** (الملك: ٢)؛ والأَولى حسب الترتيب، أن يقول: خلق الحياة والموت؛ لكنه قال الموت والحياة؛ لأن الموت يُمكن لحظه ومشاهدته، ومن وقائعه وترتيبه نتوصل إلى وقائع الحياة بعكس الترتيب والمراحل؛ إذًا فالموت منفذٌ لمعرفة كيفية خَلْقِنا.

وبذلك نستنج بالمشاهدة والتجربة مستعينين بالاستنباط العقلي على حقيقة الغيب، لكن بعد أن نُسلّم بخبر الله تعالى عنه، **وعليه فإن العلم الغيبي لا يكون إلا بالخبر الصادق.**

هذه الإشكالية وصفّتها آيات في سورة الإسراء، ليس في الإيمان الغيبي بل بتصديق كون الرسول مرسلٌ من الله تعالى، فساق المشككون حججًا حسيّة تعينهم على الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام، أي أنهم استخدموا المنهج التجريبي الحسي للدلالة على صدق تشكيكهم، فقالوا:

وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا

رَّسُولًا*قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا

(الإسراء: ٩٠ – ٩٦)

لقد صَعب عليهم الاعتقاد بأن الرسول مكلّف من الله تعالى، لأن ذلك يحتاج إيمانًا بالله وملائكته غيبيًا، ولا يكون محسوسًا لاحتياجه للتصديق بالخبر، ويصعب على البعض التسليم به بسبب طريقة الوصول للاعتقاد بالأدلة الحسية، وكما ذكرت الآيات الكريمة فقد طلبوا من الرسول الذي لم يؤمنوا به:

- أن يُفجر لهم ينبوعًا من الأرض.
- أن يكون له جنة فيها مما لذّ وطاب.
- أن يُسقط عليهم كسفًا من السماء كما وعدهم.
- أن يأتيهم بالله تعالى أو بملائكته.
- أن يكون له بيت مزخرف.
- أن يرقى بالسماء أمامهم، ولن يكتفوا بهذا الدليل بل أن يأتيهم أيضًا بكتاب يقرؤونه.

لذلك لا يفيد المنهج التجريبي بتحقيق الإيمان بالله تعالى لمحدوديته عن استيعاب الأحداث الغيبية.

القضية الايمانية والقضية الكونية

حينما[1] يتكلم الله بقضية إيمانية (قرآنية)؛ فلابد أن تأتي القضية الكونية مصدقة لها، ومثال ذلك في قول الله تعالى: **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا** (الاسراء: ٤ – ٦).

فتشترط القضية القرآنية أن يكون الموعودون بالنصر (عباداً لله) لتتحقق القضية الكونية؛ فبعد أن يُعطى اليهود المَدد بكثرة الأموال والولد وكثرة النفير بأن يُنجدهم الدعم الدولي ويمدهم قوة وبأسًا؛ يُحكم الله قضيته، ويقول لليهود: **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا** (الاسراء: ٦).

فالبشرى بدخول المسجد، هي لعباد الله وهذا تنبيه للمسلمين ليعودوا عباداً له؛ فالدخول الأول كان في عهد الفاروق عمر رضي الله عنه، والثاني مشروط بعودة المسلمين عباداً لله، وهذا وعد شرعي حتى تتحقق القضية الكونية بالنصر

[1] خواطر الشعراوي، سورة الاسراء

والدخول. وبذلك ترتبط القضية القرآنية بالإيمان، ويرتبط تحقق القضية الكونية بتحقق القضية القرآنية، ووعد الله لا يتخلف أبداً.

المبحث الثامن
طرق كسب العلم الأولي

إن ما علَّمنا الله إياه، هو علم أولي وضروري، فهو الربُّ المربي لعباده والمدبر لهم، فبعد أن خلقهم وأوجدهم في هذا الكون، علّمهم ما يلزمهم بداية، وأعطاهم العقل ميزة لهم عن باقي مخلوقاته، وترك لهم حرية الاختيار، وجعلهم مسؤولون عن خياراتهم، حيث سيحاسبهم عنها حسابًا دقيقًا.

أما عن كيفية كسب العلم الأولي؛ فهي كالآتي:

كسب العلم بإيحاء من الله لرسله

هذا تعليم خاص بالأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم، وكذلك لبعض مخلوقات الله.

والإيحاء لغة[1]؛ من أَوْحَى إليه وله؛ أي أَشار وأَومأَ، قال تعالى: **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** (الأعراف: ١١٧)، بمعنى: كلَّمه بكلام يخفَى على غيره، أو أَمَرَه، أو بَعثه، أو أَرسل إليه، أو أَلهمه، ومثال ذلك:

- سخّر الله لموسى عليه السلام العصا لأشياء عديدة، ومنها أن أوحى إليه ليضرب بها الحجر لتفجير ينابيع يعلم منها الناس مشاربهم، وانقسم الناس بعدد تلك المشارب، قال تعالى: **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى**

[1]، مرجع سابق، المعجم الوسيط

إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ (الأعراف : ١٦٠) .

- والعصا ذاتها استخدمها موسى عليه السلام ليفتح طريق النجاة له ولقومه في البحر بإيحاء من الله، قال تعالى : وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (طه : ٧٧) .
- وأوحى الله تعالى إلى نبيه نوح عليه السلام كيفية صناعة السفينة، قال تعالى : فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا (المؤمنون : ٢٧) .
- وأوحى الله تعالى إلى النحل يُعلمها أين تُقيم مساكنها وأعشاشها، قال تعالى : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (النحل : ٦٨) .

كسب العلم بتعليم الله تعالى لرسله

يُعلّم الله تعالى أنبياءه ورسله لأنهم سيكونون معلمي الناس . وأمثلة ذلك كثيرة :

- إقراء القرآن الكريم لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم؛ بوساطة الملَك جبريل عليه السلام شفاهة، وهو بدوره صلى الله عليه وسلم أقرأه للناس شفاهة كما تعلّمه .

- تعليم الرسل والأنبياء مناسك العبادة؛ قال الله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة: ١٢٨).
- تعليم الله تعالى للخضر عليه السلام، قال تعالى: وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (الكهف: ٦٥).
- تفهيم الله الحكم والقضاء لداود وسليمان عليهما السلام: وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (الأنبياء: ٧٨ – ٧٩).
- إيتاء العلم لداود وسليمان عليهما السلام: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (النمل: ١٥)
- تعليم داوود عليه السلام صناعة مستلزمات الحرب: وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (الأنبياء: ٨٠).
- تعليم سليمان عليه السلام منطق الطير: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (النمل: ١٦).

ويعتبر قول الله تعالى في نهاية الآية ٢٨٢ من سورة البقرة: **وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**، لفتة كريمة من الله تعالى إلى أنه يُعلّم عباده؛ فهو ربهم الذي يرزقهم، ويربيهم، ويؤمن لهم مستلزمات عيشهم في هذه الأرض؛ فالواو استئنافية والفعل مضارع يفيد الاستمرارية، ولفظ الجلالة فاعل لأنه جلَّ جلاله؛ المعلّم.

أما ختم الآية بقوله تعالى: (**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)؛ فاللهّ لفظ الجلالة مبتدأ، لأنه تعالى مُبتدِئ كل علم وكل أمر، و (**عَلِيمٌ**) خبره تعلق به الجار والمجرور، أما (**شَيْءٍ**) فمضاف إليه لأنه تعالى خالق كل شيء لا يغيب عنه أي شيء، قال تعالى: **لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (سبأ: ٣)

والآية ٢٨٢ من سورة البقرة هي أطول آية في القرآن الكريم، تسمى بآية المداينة أو الكتابة؛ فيها مراحل توثيق الديون وكتابته بتقنيات تمنع أي خلل قد يشوب عملية الائتمان ويضفي عليها الثقة اللازمة، مما يورث اليقين أو غالب الظن في الأسواق ويضبط بعض مخاطر الائتمان.

والآية نص قرآني فيه كلامٌ جزلٌ واضحٌ في كيفية التوثيق والكتابة وكذلك الرهن في الآية التي تلتها، وهذا تعليم من الله من خلال القرآن الكريم.

ويوجد في كتاب الله العديد من الآيات التي تُعلّم المسلم ما يلزمه ليعيش آمنًا على هذه الأرض والتي جُهزت لعيشه، قال تعالى: وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (الأعراف: ١٠).

وفي سورة النور مثلاً:

- تعليم لكيفية التصرف مع الزناة الذين اعتدوا على أعراض غيرهم بغير ما أحلّه الله تعالى، والزنا آفاته كثيرة سواء بما يُحدثه من أمراض جسدية ونفسية وخلط للأنساب؛ فضلاً عن الصراعات بين الناس بسببه.
- تعليم للعفو والصَفح وعدم قطع الصدقات عمن ظلمه غيره.
- تعليم لكيفية التصرف مع من قذف أعراض الناس بهتانًا.
- تعليم لكيفية دخول البيوت، سواء دخول أصحاب البيوت بيوتهم أو بيوت غيرهم، وهذه آداب راقية يسمو بها الناس إن فعلوها.
- تعليم لكيفية غض البصر، وآداب تخص الناظر والمنظور إليه لتربية السلوك الاجتماعي.

والتفاصيل كثيرة في هذه السورة وفي غيرها، وما ذكرناه أمثلة للدلالة على أن القرآن الكريم فيه؛ علوم تربي سلوك الإنسان وتقوّمه ليَسعد في عيشه على هذه البسيطة فيما قُدّر له من العمر فيها، وفيه علوم تخص الفلك والأجرام السماوية، والبحار وما فيها، والفضاء وما بين السماء والأرض، ... إضافة لعلوم عديدة.

وفي سورة يوسف:

كرر يعقوب عليه السلام إخباراً بعلمه عن الله مرتين: أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، مرة: وَأَعْلَمُ، ومرة قال: إِنِّي أَعْلَمُ. فماذا كان يعلم في الأولى وماذا كان يعلم في الثانية؟

في الأولى: قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (يوسف: ٨٦).

ذكر الطنطاوي: إني «أعلم من الله» أي: من لطفه وإحسانه وثوابه على الصبر على المصيبة (ما لا تعلمون) أنتم، وإني لأرجو أن يرحمني وأن يلطف بي، وأن يجمع شملي بمن فارقني من أولادي، فإن حسن ظني به سبحانه، عظيم.

ذكر البغوي: يعني: أعلم من حياة يوسف ما لا تعلمون.

ذكر ابن كثير: عن ابن عباس يعني: رؤيا يوسف صِدقٌ وأن الله لا بد أن يُظهرها ويُنجزها.

ذكر القرطبي: أعلم من إجابة دعاء المضطرين ما لا تعلمون.

ذكر ابن عاشور: وقد أعقب كلامه بقوله: (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) لينبّههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العَالية ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلّموه أو يلوموه، أي أنا أعلم علمًا من عند الله علّمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوءة. وقد تقدم نظير هذه الجملة في قصة نوح عليه السلام من سورة الأعراف فهي من كلام النبوءة الأولى. وحكي مثلها عن شعيب عليه السلام في سورة الشعراء.

وفي الثانية: قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (يوسف: ٩٦).

ذكر الطبري: قال يعقوب لمن كان بحضرته حينئذ من ولده: ألم أقل لكم يا بني إني أعلم من الله أنه سيردّ عليَّ يوسف، ويجمع بيني وبينه، وكنتم لا تعلمون أنتم من ذلك ما كنت أعلمه، لأن رؤيا يوسف كانت صادقة، وكان الله قد قضى أن أَخِرَّ أنا وأنتم له سجوداً، فكنت مُوقنًا بقضائه.

فكانت الأولى إعلامًا لمن حوله بصيغة الفعل المضارع، بأنه يعلم من حياة يوسف وما سيصيبه من ابتلاءات ما لا يعلمون، وأنه لن يبلغ عقولهم المقاصد المرجوة، فهو يعلم أن رؤيا ابنه رؤيا حق لأنه نبي. أما الثانية فكانت بصيغة التأكيد ب (إن) كونها إخبار بما تم فعلاً.

كسب العلم من رسل الله وأنبيائه

يُعلّم الرُسلُ الناس أحكام دينهم؛ كما تعلموه من الله تعالى.

- سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربهما أن يبعث فيمن بعدهم رسلاً من كل أمة؛ يتلو عليهم آيات الله والتلاوة تعليمًا شفهيًا، ويعلمهم كتاب الله، وأن يزيدهم حكمة ليمنعهم من الجهل بالعلم والعمل، ليُحكِموا عمل الأشياء بإخلاص، وأن يُزكيهم ليصلحهم إصلاحًا لحالهم، قال تعالى: **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (البقرة: ١٢٩).

- سأل موسى عليه السلام الخضر أن يعلمه، قال تعالى عن ذلك: **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** (الكهف: ٦٦)، وبهذا فإن اتباع

المتعلم للمعلم وسيلة من وسائل كسب العلم. كما أن عملية التعليم كانت بالمشاهدة والملاحظة لما يفعله المعلم، وهذا ما جاءت به آيات وصفت الخضر وهو يَفعل، وموسى عليه السلام يُتابعه ويُلاحظ فعله.

- ذكر ابن كثير: قال الخضر لموسى: **إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**، أي: أنت لا تقدر أن تصاحبني لما ترى من الأفعال التي تخالف شريعتك؛ لأني على علم من علم الله، ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله، ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي.
- تَعلمُ الرسل عن الله ما لا يعلمه البشر، ومهمتهم التعليمية تبليغ ما علموه ونصح الناس، وَردَ ذلك على لسان أنبياء الله هود ونوح وشعيب عليهم السلام لأقوامهم: **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (الأعراف: ٦٢) ومثلها الآيات ٨٦ و ٩٣ من السورة ذاتها.

كسب العلم بمحاكاة المخلوقات

المحاكاة لغة[١] من (حَكَى) عنه الكلام؛ يحكي (حِكَايَةً)، و (حَاكَاهُ) إذا فعلَ مِثْلَ فِعْلِه، و (المُحَاكَاةُ) المُشَاكَلَةُ.

لذلك يُقصد بالمحاكاة فعل الشيء المشابه والمثيل، كمن ينقل عن غيره حكاية أو يرسم رسمًا. وبما أن الأشياء وُجدت في الكون من قِبل صانع خبير، وقد علّم الله

[١] مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، (٦٦٦ هـ - ١٢٦٨ م)

أبو البشر آدم عليه السلام الأسماء كلها، فإن تعرّف الإنسان إلى محيطه البيئي سيأخذه إلى محاكاته؛ فهو يُشاهد الأشياء ثم يحاول تقليدها ومحاكاتها.

وعليه؛ فالمحاكاة شكل من أشكال التعلم وكسب للمعرفة من البيئة المحيطة التي ليس للإنسان يدٌ في إيجادها.

ويمكن التمييز بين عدة أنواع من المحاكاة:

- محاكاة الدماغ: ومثاله التعلم العميق Deep Learning، وهذا نوع حديث من التعلّم الذي يهدف إلى تعليم الآلة خوارزميات اتخاذ القرار بنفسها من خلال تعلم الأشياء IOT والتصرف دون تدخل بشري بشأن سلوكيات معينة. وهناك عصبونات صنعية متعددة الطبقات لتحقيق الذكاء الصنعي للآلة، وكل ذلك عبارة عن محاكاة للدماغ البشري في كيفية اتخاذ القرار والتمييز وما إلى ذلك.
- محاكاة الخَلق وصناعة ما يماثلها: ومثاله اختراع الطائرة نقلاً عن تقنيات الطيور وأولها كانت تجربة عباس بن فرناس الذي دفع من حياته ثمنًا لتعلم الطيران، والسيارة وما شابهها نقلاً عن تقنيات الدواب كالحمار والجمل ... الخ، وكذلك النحل والنمل والعنكبوت وغيرها من المخلوقات التي يعمل الإنسان على صنع ما يشابهها ليستفيد مما في تلك المخلوقات من مزايا، وكل ذلك محاكاة.

المبحث التاسع
طرق فساد العلم

الفساد هو الخلل والتلف والعطب والبطلان، وفساد العلم بطلانه وخلله وعطبه، حيث تتشوه الحقائق وتميل عن الحق ميلاً عظيمًا.

لقد أثبت القرآن الكريم فساد العلم عند الأمم السابقة؛ فقد جاءهم الحق من الله تعالى الذي أرسل رسله تترى للناس، فاستحكموا عاداتهم وتقاليدهم الفاسدة واستنكروا الحق الذي جاء به رسل الله عليهم السلام فكفروا بما جاءهم، وزوّروا كتب الله تعالى التي جاءتهم، ووصفهم الله تعالى بقوله: **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ** (البقرة: ٧٩).

لقد حرص كتاب الله تعالى على محاربة العادات والتقاليد التي سرعان ما يُحولها الناس الجُهّال إلى عقائد يؤمنون بها؛ فينحرفون عن الحق، ويُشركون مع الله غيره ويجعلون له الولد والزوج وهو أعلى وأجلّ من أن يكون له صاحبة أو ولداً، قال تعالى على لسان الجن: **وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا** (الجن: ٣).

تشويه الحقائق والميل عنها

ويكأنَّ وظيفة كتاب الله تعالى ورسله عليهم السلام هو دحض العادات والتقاليد التي صارت مُسلمات لدى الناس.

فالقول مدعاة للنفاق بأكثر من وجه: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (البقرة: ٧٦)، وهذا سببه الجهل بعلم الله الذي وسع كل أحوال خلقه: أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (البقرة: ٧٧)

والقول يجب أن يسبقه علم وإلا كان سببًا للاختلاف: وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (البقرة: ١١٣).

ويحتاج القول دليل يثبت الحقيقة المزعومة وغير ذلك يكون من باب التمني: وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (البقرة: ١١١).

ولأن الإيمان ليس ظنيًا بل يقينيًا؛ فإن المنهج التجريبي لوحده غير كافٍ: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (البقرة: ١١٨).

العادات والتقاليد

قضية الإيمان يحسمها العلم الذي يُورث الحقيقة؛ فليس بعد الحق إلا اتباع الأهواء، وعليه فإرضاء الآخرين باتباعهم تقليداً؛ يُبعد المقلِّد عن رضى الله تعالى، **وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (البقرة: ١٢٠).

ويكون العلم بالتعلم وليس بالاتباع والهوى، والعلم الصحيح بمعنى الحقيقة العلمية؛ هو العلم الذي جاء من الله تعالى، الذي قال: **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** (البقرة: ١٤٥).

إن العادات والتقاليد، وإرث الآباء والأجداد؛ ليست مصدر علمٍ حقيقي لما قد يخالطها من شك وريَب، فقد يكون آباؤهم قد عطلوا عقولهم في إدراك الأشياء، فلا يهتدون ولا يكونون مستبصرين للطريق الصحيح، قال تعالى: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** (البقرة: ١٧٠).

وقد بدأ تشويه الحقائق بانجراف من يدّعون أنهم أهل علم بتحريف ما جاءهم من الله، أما وسائل التشويه؛ فهي عديدة:

- تزوير الحقائق التي يسمعونها: وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (البقرة: ٧٥).
- إعادة إنتاج كتب باسم الله تعالى كذبًا وبهتانًا: يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ (البقرة: ٧٩).
- يؤمنون بما يوافق أهواءهم ويتركون ما لا يعجبهم: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ (البقرة: ٨٥).
- تعمية الحقائق بقصد الغش وإلباس الحق بالباطل: وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (البقرة: ٤٢).

التكبر وإدعاء التفرد

قضت حكمة الله أن التفرد لا يليق إلا بذاته العلية، وقد حاول العديد من بني البشر التفرد؛ فطغوا وأصيبوا بأمراض نفسية فأساؤوا لأنفسهم ولغيرهم. ويعتبر فرعون رأس الأمثلة، فهو مثالٌ على ذلك؛ حيث ادعى الألُوهية؛ ثم أهلكه الله تعالى بعد أن أرسل له موسى عليه السلام؛ ليهديه بالحجة والبيان، فتكبَّر وعلا في الأرض، قال تعالى: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (النازعات: ١٧ – ٢٤).

وقد قضت حكمة الله تعالى أن يكون الخلود له؛ فليس قبله شيء وليس بعده شيء، وهو الأول والآخر، وقد حكم على جميع خلقه بالموت، وهو الحي الذي لا يموت، وهذا يجعل العاقل يُسلّم أمره له جلّ وعلا لأنه ربط نفسه بمن لا يموت ويتخلى عنه، وهذه عين الحوكمة التي تبتغي الاستمرارية.

آفات نقص العلم

لما أمر الله تعالى خلقه من الملائكة والجن وغيرهما ممن خلقهم أن يسجدوا لآدم؛ أبى إبليسُ تنفيذ أمر ربه: **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** (البقرة: ٣٤)، ورَفضُه رفض المتكبر ظنّا بما عنده من العلم؛ وأن الأفضلية سببها الجِبّلة التي خُلق منها الجن والإنس، قال تعالى: **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** (الأعراف: ١٢)، وهذا شأن ناقصو العلم والمعرفة في وقوعهم في الأخطاء، وقد كان خطأ إبليس عظيمًا لأن نتيجته أن أودى بنفسه نار جهنم خالدًا فيها.

وتكرر نقص العلم في قتل الأخ لأخيه حسدًا، والحسد هو القِشر؛ أي أن القاتل أخذ بظاهر الشيء ولم يعلم حقيقته، فكان خطؤه عظيمًا، وسرعان ما وجد نفسه في حيرة؛ لجهله بما سيفعله بجثة أخيه المقتول، فهذه أول حالة قتل (موت) في الكون، فأرسل الله له غرابًا يُعلمه كيف يواري جثة أخيه في التراب؛ وقد عَلَّم الله هابيل كيفية الدفن بوساطة مشاهدة فِعل الغراب. قال الله تعالى: **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ**

هَـذَا الْغُرَابِ فَـأُوَارِيَ سَـوْءَةَ أَخِي فَـأَصْـبَحَ مِـنَ الـنَّادِمِينَ (المائـدة : ٣١)، والـكيفية (كَـيْفَ) هـي طـريـقة الـعمل وهـي تحـتاج عـلمًا سـابـقًا عـن الـعمل المنجـز، وكـيفيَّة الشـيء : حـالُـه وصِـفتُه[١]، أمـا الإراءة (لِيُرِيَهُ) فـهو تـعلمٌ بـالمـشاهـدة، فـالله أوحـى للغراب لينفذ العمل أمام هابيل، فتعلم هابيل بمشاهدة الفعل، **وبذلك فإن أصل كسب العلم عند المخلوقات جميعها وخاصة الإنسان ؛ هو علم الله تعالى .**

[١] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م.

المبحث العاشر
مقومات العملية التعليمية

لابد من استمرار العملية التعليمية والمحافظة على مقومات بقائها لإبعاد الناس عن الجهل والتجهيل، وإرشادهم إلى العلم الصحيح وإكسابهم الحكمة منه ليتقنوا العمل ويُخلصوا به؛ فتقوم بذلك عمارة الأرض، ويتحقق نفع الناس وتعم السعادة بينهم، وبذلك يُعبد الله تعالى واحداً أحداً.

ولكثرة مصطلحات دعاة التجهيل والتضليل لابد من بيان مصطلحات أهل العلم وتعابيرهم. أما مقومات العملية التعليمية فتتمثل بالحاجة إلى الرسول المعلم ومذاكرته للمتعلمين، وتوضيح مراتب العلم التي يمكن للإنسان أن يرتقيها وأن يتسلح بها، كلٌ حسب طاقته فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، قال تعالى: **لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا** (البقرة: ٢٣٣).

الحاجة للرسول المعلم

تحتاج العملية التعليمية مُعلماً، وبما أن الكلام عن العلم الذي من عند الله، فيكون المعلم معلماً رسولاً من بني البشر أنفسهم؛ ليُعلِّم الناس كتاب الله؛ بإقرائهم آيات الله وتلاوتها عليهم وبتزكيتهم وتطهير نفوسهم، ويعلمهم الحكمة من خلال معرفةُ أفضل الأشياء بأفضل العلوم، قال تعالى: **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (البقرة: ١٢٩).

مهمة الرسول المعلم التبشير والإنذار

جاءت الآية التالية لترسي حقيقة حمل الرسول لخبر السماء وبأنه ليس إلا بشيراً ونذيراً لأهل الأرض الذي هو منهم: **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ** (البقرة: ١٣٠).

مذاكرة الرسول العلم مع المتعلمين

تكون المذاكرة مع الغير بالحوار لإغناء معارفهم، وللاستدلال على ما خفي منها؛ فلا يحوز العلم كاملاً إلا خالق عليم، ولسَعة علمه وشدته فهو عليم بكل شيء سواء أكان خافيًا أم باديًا، وفي هذا تنبيه كي لا يغفل الخلق بكتمانهم أشياء ظنًا منهم أن لا أحد مُطلع على ما كتموه. يفيد ذلك في المعرفة بأن الخالق رقيب عليم لا يعزب عنه شيء مطلقًا، قال تعالى: **فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** (٣٣).

وتأتي مرحلة العمل بعد العلم واكتساب المعرفة وهذا شرط، فأول أمر ابتدأه رب العزة لخلقه كان أن أمرهم بالسجود لآدم وهذا عمل، فالتزم الملائكة أمر الله وعملوا بما علموه، أما إبليس فرفض إنجاز العمل رغم ما علمه من الله تعالى.

وأوضح الله تعالى العلة في رفض العمل بالأمر بأنها (الاستكبار)، والاستكبار من الشيء الكبير الذي يدعو صاحبه ليكون أعلى من غيره، وبما أن الله تعالى من صفاته الكبير ومن أسمائه العظيم، وأنه صاحب الأمر وكل شيء دونه؛ فحريّ بإبليس؛ أن يطيع وينفذ العمل لأنه عَلِم وعَرِف قَدر خالقه، والاستكبار والترفع

تعالياً جعل إبليس بعيداً عن الحقيقة؛ فكان غِطاءً له عنها؛ فصار كافراً لتغطيته العلم الذي علمه، فصار الكفر صفة المتعامي عن الحقيقة الواضحة وأداة المواربة عنها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (البقرة: ٣٤).

إذاً؛ الإيمان علم، والعمل به يكون صالحًا، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة: ٦٢). وقال أيضًا: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: ٨٢).

موسى والخضر والعملية التعليمية

حكى لنا القرآن قصة الحوت الذي سخّره الله ليُقلّ موسى عليه السلام؛ ليتعرف على الخَضر ليتعلم منه؛ بعدما ظنَّ موسى عليه السلام أنه أعلمُ أهل الأرض، فتلقى دروسًا في أصول التعلم، ومن ذلك:

- طلب الإذن من المعلم، قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (الكهف: ٦٦).
- طالبُ العلم متواضع لمعلمه، ولو كان نبيًا من أولي العزم؛ فشرط الملازمة الطاعة والصبر؛ لقول موسى للخضر عليهما السلام: قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (الكهف: ٦٩).

- اشترط المعلم ألا يقاطعه المتعلم؛ حتى ينتهي من عمله: **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** (الكهف: ٧٠).
- الخطأ المقبول، اثنان؛ فإن زاد عن ذلك تنتهي العملية التعليمية: **قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** (الكهف: ٧٨)، أي أن من حق المتعلم أن يعلم تفسير الأحداث من معلمه.
- صفة المعلم أنه أكثر علمًا: **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** (الكهف: ٦٥)؛ فالعليم هو الله تعالى، وهو من علّم الخضر عليه السلام، الذي علّم بدوره موسى عليه السلام.
- التعليم من خلال معلم؛ كتجربة موسى مع الخضر عليهما السلام؛ وعلمناه من لدنا علمًا؛ أي بدون رسل، وعادة هذا علم غير ظاهر أي ليس علم أحكام بالتكاليف. ذكر الشعراوي رحمه الله: أن خرق السفينة ظاهريًا منهي عنه لما فيه من الأذى وهذا علم الرسل والأنبياء، أما فعل الخضر فهو مما علَّمه الله إياه (علم لدنيّ)، له أسباب باطنية غير ظاهرة، وفيه الخير؛ لذلك كان قول الخضر لموسى: **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** (الكهف: ٦٧).

مراتب العلم

العلم مكانه الظنيات وأفضل درجاتها غالب الظن، لذلك فالنظريات والأبحاث والدراسات العلمية تكون ضمن غالب الظن، فإذا استقرت ولم تتغير بتغير

الظروف المحيطة فترة طويلة من الزمن أمكن تصنيفها كقانون علمي، مثال ذلك قانون العرض والطلب في الاقتصاد، الذي لم تخرمه عبر الزمن أية إشكاليات تدحضه.

فإذا بلغ العلم درجة اليقين كان صحيحًا صالحًا للاحتجاج به مع الاطمئنان لنتائجه، جاء في لسان العرب أن اليقين هو: العِلْمُ وإزاحة الشكِّ وتحقيقُ الأَمر، وهو نَقيض الشكِّ؛ فالعلم نقيضُ الجهل، وعليه يُقال: عَلِمْتُه يَقينًا.

وبناء عليه؛ فالعِلم أدنى الدرجات، ثم يعلوه (عِلم اليقين)، ثم (عَين اليقين)، أمّا أعلاها فـ (حقّ اليقين). وقد ذكر القرآن الكريم هذه الدرجات:

- علم اليقين، وهو أقلها؛ ويكون العلم المتلقى سماعيًا، ويتحقق علم اليقين بالخبر من خلال حاسَّة السمع فيستقر في القلب ويُصدِّقه؛ كقوله تعالى: **كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**.
- عين اليقين، وهو العلم الذي يكون بالمشاهدة، ويتحقق عين اليقين بِحاسَّة البصر؛ كقوله تعالى: **ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**.
- حق اليقين؛ وهو العلم المُعاش والمُكابد والمتحقق منه، قال تعالى: **فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَـذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ** (الواقعة: ٩٣ – ٩٥).

لذلك فإن مصدر المعرفة؛ آيات الله في قرآنه الكريم، ثم مخلوقاته في الكون، فتكون المعلومات بالكم، والعلم بالكيف، لتستثمر المعارف بتوظيف المعلومات بمنهجية وصولاً للحقائق العلمية.

إذاً يستند العلم إلى المعرفة، لأن فيها إدراك الشيء على ما هو عليه بعينه لا بصورة زائدة في الذهن، والصورة الذهنية قد تطابق الحقيقة وقد لا تطابقها، فيكون العلم نسبيًا، وإن طابقها في الذهن فقد يكون التعبير اللغوي غير مطابق للصورة الذهنية أيضاً. وهذه الإشكالات تكون حاضرة عند المفكرين والمبدعين والقيادات وهذا ما قصدناه بغالب الظن، فيبقى كذلك حتى يُرسي الطمأنينة والثبات فيكون حقيقة علمية.

الفصل الثاني: المنهج

تدخل كل الطُرق تحت كلمة مناهج، وسيأتي تفصيلها مصحوبة بالأمثلة، والتَّوضيح، والبيان إنْ شاء الله تعالى.

المبحث الأول

الشرعة والمنهاج

الشرعة أو الشريعة هي ما يخص كل أمة من الأمم، من تفصيل أحكام دينها، من حلال وحرام. وذلك على أساس التدرج في التشريع لتناسب تلك الأمة، فتطورت الشرائع عبر الأنبياء حتى تم اكتمالها بالشريعة الإسلامية.

أما المنهج فهو الإطار الأساسي للشرائع كلها، والجامع لها، بأمور التوحيد وعبادة الله الواحد، لذلك هو الصراط المستقيم.

وباب التنافس مفتوح بين الأفراد من كل شريعة، كما أنه مفتوح بين الأمم أيضًا، لذلك قال المولى: **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**، أي: بادروا واجتهدوا.

فالشرائع متعددة، بتعدد الأمم لكنها واحدة في الدعوة إلى الله تعالى ضمن منهج مؤداه توحيد الإله والإخلاص له. لذلك كانت مسألة "شرع من قبلنا" هي شرع لنا ما لم يرد نسخ وهذا رأي (الجمهور)، وأنه ليس شرعٌ لنا إلا إذا وافق نصًا من القرآن أو السنة.

قال تعالى: **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** (المائدة: ٤٨)

ذكر السعدي: **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ**: أيها الأمم جعلنا: **شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**، أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، أي تتغير حسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها يرجع إلى العدل في وقت شرعتها. أما الأصول الكبرى التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتُشرَّع في جميع الشرائع.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً: تبعًا لشريعة واحدة، لا يختلف متأخرها ولا متقدمها.

وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ: فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويبتلي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**، أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقًا لغيره مستوليًا على الأمر، إلا بأمرين:

- المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها.
- الاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به.

ويستدل بهذه الآية، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها، وعلى أنه ينبغي ألا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات، التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها السبق.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا: الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه.

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ: من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ.

ذكر الطنطاوي: لكل أمة من الأمم الحاضرة والماضية وضعنا شرعة ومنهاجا خاصين بها، فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام، كانت شرعتها ما في التوراة من أحكام. والأمة التي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث محمد عليهما الصلاة والسلام كانت شرعتها ما في الإنجيل. وأما هذه الأمة الإسلامية فشريعتها ما في القرآن من أحكام، لأنه مشتمل على ما جاء في الكتب السابقة عليه من أصول الدين وكلياته التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وزاد عليها ما يناسب العصر الذي نزل فيه، والعصور التي تلت ذلك إلى يوم القيامة... أما ما يتعلق بأصول الشريعة، وجوهر الدين، وأساس العقيدة كالأمر بعبادة الله وحده، والتحلي بمكارم الأخلاق، فلا اختلاف في أي شريعة من الشرائع، أو أي دين من الأديان.

ذكر القرطبي: قال أبو العباس محمد بن يزيد: الشريعة ابتداءً الطريق؛ والمنهاج الطريق المستمر. وروي عن ابن عباس والحسن وغيرهما شرعة ومنهاجًا سنة وسبيلاً، ومعنى الآية أنه جعل التوراة لأهلها؛ والإنجيل لأهله؛ والقرآن لأهله؛ هذا في الشرائع والعبادات؛ أما الأصل الذي لا اختلاف فيه، فهو التوحيد.

المبحث الثاني
قضية الشرع في القرآن الكريم حسب أقوال المفسرين والفقهاء

أجمع العلماء على أن الشريعة الإسلامية تتميز بالكمال والشمول، وهي صالحة لكل زمان ومكان، وهي تتيح مساحة للاجتهاد في فقه النوازل والمستجدات.

والشرع والشرعة لغةً، هي المصدر والمذهب والطريق (من شَرَعَ أي وَضَعَ ونَصَبَ).

واصطلاحًا: هي ما شرعه الله لعباده من الدين وأمرهم به من (أحكام وتكاليف).

الآيات التي ذكرت الشرع والشرعة

١. قوله تعالى: **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** (المائدة: ٤٨)

- ذكر الطبري: شرعة: سبيلاً وسنة، فكلٌ قد جعلنا له شريعة يتبعها، ومنهاجًا قصداً يقصده.
- ذكر ابن كثير: أي طريقًا وسنة ومنهاجًا.
- ذكر القرطبي: الشرعة ما يبتدأ به، والمنهاج ما يسلك بعد ذلك.

٢. قوله تعالى: **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا** (الجاثية: ١٨).

- ذكر الزمخشري: الشريعة: الطريقة والملة.
- ذكر الرازي: أي جعلناك متمسكًا بشرعة من الشرائع الإلهية.

آراء المفسرين في قضية الشرع

١. مفهوم التعددية في الشرائع:

- ذكر الشوكاني: أن الشرائع تختلف باختلاف الأمم والأزمنة.

- ذكر ابن عاشور: أن المراد باختلاف الشرائع: اختلاف تفاصيل الأحكام لا الأصول.
- ذكر الآلوسي: الشرائع مختلفة من حيث التفاصيل، متحدة في أصول التوحيد والفضائل.

٢. العلاقة بين الشرائع السماوية:

- الماوردي: يرى اتحاد الشرائع في الأصول، واختلافها في الفروع.
- الطبرسي: الشرائع واحدة في الدعوة إلى التوحيد، مختلفة في بعض الأحكام.

آراء الفقهاء في قضية الشرع

في أصول الفقه:

- الشافعي: ميّز بين ما شرع لنا خاصة وما شرع للأمم السابقة.
- أبو حنيفة: توسع في الأخذ بشرع من قبلنا.
- مالك: اشترط عدم النسخ لشرع من قبلنا.
- أحمد بن حنبل: توسط في الأخذ بشرع من قبلنا.

قضية "شرع من قبلنا"، وفيه اتجاهين:

- الأول (الجمهور): شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد نسخ.
- الثاني: لا يعتبر شرعًا لنا إلا بنص من القرآن أو السنة.

خصائص الشرعة الإسلامية كما يراها العلماء

١. الخاتمية والعموم:

- ابن تيمية: شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ناسخة لما قبلها، عامة لجميع الخلق.
- الشاطبي: الشرعة الإسلامية جامعة مانعة، صالحة لكل زمان ومكان.

٢. اليسر ورفع الحرج:

- القرطبي: من خصائص شريعتنا اليسر ورفع الحرج.
- ابن القيم: الشريعة الإسلامية مبناها على الحكمة ومصالح العباد.

قضية النسخ في الشرائع

١. نسخ الشرائع السابقة:

- الغزالي: نسخت شريعتنا الشرائع السابقة.
- الرازي: النسخ من حكم الله تعالى بتغير المصالح.

٢. ما بقي من شرائع الأنبياء:

- السيوطي: يرى بقاء بعض أحكام الشرائع السابقة ما لم يرد نسخ.

الشرع بين الثبات والتجديد

١. الثوابت والمتغيرات:

- محمد الطاهر بن عاشور: يميز بين "مقاصد الشريعة الثابتة" و"وسائلها المتغيرة".
- علال الفاسي: الشريعة فيها نصوص قطعية ثابتة، وأخرى ظنية قابلة للتجديد.

٢. الاجتهاد والتطوير:

- الشاطبي: الاجتهاد ضروري لفهم الشرع وتطبيقه في المستجدات.

- الوزير ابن هبيرة: فهم الشرع يتطلب معرفة مقاصد الشريعة.

آراء المدارس التفسيرية المعاصرة

١. المدرسة الإصلاحية:

- محمد عبده: دعا إلى فهم الشرع وفق مقاصد الشريعة وروح العصر.
- رشيد رضا: ركز على الجمع بين الأصالة والمعاصرة في فهم الشرع.

٢. المدرسة النصية:

- محمد الأمين الشنقيطي: التزم بفهم النصوص دون تأويل بعيد.

يتبين من أقوال المفسرين والفقهاء أن قضية الشرع في القرآن تتركز على عدة أمور:

١. التدرج في التشريع: تطور الشرائع عبر الأنبياء حتى اكتمالها بشريعة الإسلام.

٢. الوحدة والتنوع: اتحاد الشرائع في الأصول، واختلافها في بعض الفروع.

٣. الخاتمية والعموم: شريعة الإسلام ناسخة لما قبلها، عامة لجميع البشر.

٤. المرونة والثبات: الجمع بين الثوابت الشرعية والمتغيرات الاجتهادية.

٥. المقاصدية: تحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة.

المبحث الثالث
قضية المنهج في القرآن الكريم حسب أقوال المفسرين والفقهاء

يتفق المفسرون والفقهاء على أن القرآن الكريم قدم منهجًا متكاملاً للحياة، يجمع بين الثبات في الأصول والمرونة في الفروع، وأنه يدعو إلى التوازن بين العقل والنقل، والروح والمادة، والفرد والمجتمع.

يشير مفهوم "المنهج" في القرآن الكريم إلى النظام والطريق الواضح الذي رسمه الله تعالى لهداية البشر، وهو ما عبر عنه القرآن بمصطلحات مثل: الصراط المستقيم، والمنهاج، والسبيل، والشرعة، والسنّة، وغيرها.

آراء المفسرين في قضية المنهج القرآني

١. المفهوم اللغوي والاصطلاحي؛ المنهج لغةً هو الطريق الواضح المستقيم.

- ابن كثير: يفسر المنهاج بأنه "الطريق والسبيل والسنّة".
- الطبري: يؤكد أن المنهج هو الطريق البيّن الواضح.

٢. المنهج في القرآن:

أشار المفسرون إلى عدة صور للمنهج القرآني:

أ) المنهج الاعتقادي:

- الغزالي: يرى أن القرآن قدم منهجًا متكاملاً في التوحيد يبدأ من الفطرة وينتهي بالاستدلال العقلي.
- ابن تيمية: يؤكد على المنهج السلفي في فهم النصوص دون تحريف أو تعطيل.

ب) المنهج التشريعي :

- القرطبي : يبين أن القرآن وضع أصول التشريع وفروعه .
- الشاطبي : يشير في "الموافقات" إلى أن منهج القرآن في التشريع يقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد .

ج) المنهج الأخلاقي والتربوي :

- الرازي : يرى أن القرآن يقدم منهجًا تربويًا متدرجًا .
- ابن القيم : يؤكد على المنهج القرآني في تزكية النفس .

٣ . خصائص المنهج القرآني كما يراها المفسرون :

- الوضوح والبيان : وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ (النحل : ٨٩) .
- الشمول والتكامل : يشمل جميع جوانب الحياة .
- الواقعية والمرونة : يراعي الفطرة والإمكانات البشرية .
- التدرج : كما في فرضية الصلاة والصيام وغيرهما .
- الربانية : مصدره الله تعالى وهدفه إرضاؤه .

٤ . منهج القرآن في الحوار والدعوة :

- ابن عاشور : يبين في "التحرير والتنوير" أن القرآن استخدم منهجًا حواريًا يعتمد الحجة والبرهان .
- سيد قطب : يشير "في ظلال القرآن" إلى المنهج القرآني في تغيير الواقع .

آراء الفقهاء في المنهج القرآني

١ . المنهج الأصولي :

- الشافعي: وضع في "الرسالة" منهجًا لفهم القرآن يعتمد على اللغة والسنة والإجماع.
- أبو حنيفة: اهتم بمنهج الاستنباط من القرآن مع مراعاة المقاصد.

٢. المنهج المقاصدي:

- الغزالي: من أوائل من نبهوا إلى مقاصد الشريعة من القرآن.
- الشاطبي: طور نظرية المقاصد بشكل منهجي مستنداً إلى القرآن.

آراء الفقهاء المعاصرين في المنهج القرآني

فرّق الفقهاء المعاصرون بين ثبات المنهج وتغيره عبر خضوعه للتجديد ليناسب الزمان والمكان الذي يعيشه الناس.

١. الثوابت المنهجية:

- ابن باديس: يؤكد على ثبات الأصول والفروع مع مراعاة تغير الوسائل.
- محمد الطاهر بن عاشور: يميز بين المقاصد الثابتة والوسائل المتغيرة.

٢. التجديد المنهجي:

- محمد عبده: دعا إلى فهم القرآن وفق منهج يجمع بين الأصالة والمواكبة.
- مصطفى المراغي: دعا إلى منهج في التفسير يراعي مستجدات العصر.

لذلك يتميز المنهج القرآني حسب رأي الفقهاء والمفسرين بالربانية والشمول والتوازن، وكونه صالحًا لكل زمان ومكان، إذا فُهم وفق أصوله الصحيحة وضوابطه المنهجية.

المبحث الرابع
منهج الاستنباط ومنهج الاستقراء

الاستنباط

الاستنباط هو استخراج حكم جزئي من قاعدة كلية معلومة، أي الانطلاق من مبدأ عام ثم إسقاطه على حالة خاصة للوصول إلى نتيجة قطعية لا يدخلها الاحتمال فيكون دليلاً يقينيًا، وصحة المقدمة تستوجب صحة النتيجة، أي أنها حركة من الكل إلى الجزء، كقول الله تعالى: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** (العنكبوت: ٥٧)، قاعدة كلية، لذلك فكل نفس ستموت، وهذا استنباط مؤداه حكم يقيني بموت كل نفس وهذه ليست تجربة وليست توقعًا.

والاستنباط مهمة أهل العلم من أصحاب العقول الراجحة الذين لديهم ملكة المحاكاة العقلية، وهم يستخدمون في منهجهم مداخل بحثية[1] تساعدهم في الوصول إلى إثبات الحقائق من عدمها.

ويقوم المنهج العقلي على استخدام التفكير والمنطق العقلي للوصول إلى المعرفة، باعتماد التحليل العقلي، والاستدلال، والتأمل أكثر من الملاحظة أو التجربة. ويُستخدم عندما تكون الظواهر غير قابلة للتجريب المباشر أو عندما يكون الهدف صياغة مفاهيم ونظريات مجردة.

[1] المداخل البحثية التي تتبع المنهج العقلي: وتشمل: الفلسفية، النظرية، المنطقية والرياضية، القانونية، والأخلاقية. وهي جميعها تعتمد على التحليل العقلي والاستدلال المنطقي للوصول إلى نتائج، دون الحاجة إلى التجربة أو الملاحظة المباشرة.

ويحافظ الناس بالاستنباط على توازنهم فلا يحيدون عن الطريق المستقيم، يقول تعالى: وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (النساء: ٨٣).

والاستنباط كأداة للمنهج العقلي، يساعد أصحابه على استخدام المحاكاة العقلية للوصول إلى الحقائق وتمييز درجاتها. وقد درج القرآن الكريم على تعليم الناس الاستنباط، فمثلاً ذكَّرت الآية التالية بفضل الله تعالى على الإنسان في خلق أدواته الحسية: وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (المؤمنون: ٧٨)، ثم تلتها آيات تحاكي العقول عن مالك الأرض ومن فيها إن كانوا يعلمون، فتجيب حواسهم هي لله، فيسألهم ربهم أفلا تذكرون، والتذكر وظيفة من وظائف العقل، ويتكرر السؤال عن رب السموات السبع ورب العرش العظيم، فتجيب حواسهم لله، فيسألهم ربهم أفلا تتقون، وتتالى الأسئلة عمن بيده ملكوت كل شيء؟ ومن يجير؟ ويتردد الجواب: لله، والدليل على هذه المحاكاة أنه لو تعددت الآلهة لاختلفوا وتقاسموا وتعالوا على بعضهم، والله منزه عن كل ذلك. قال تعالى: قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا

كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (المؤمنون: ٨٤–٩١).

الاستقراء

الاستقراء كما شرحه ابن رشد، وقرره ابن تيمية في الرد على المناطقة، هو الانتقال من ملاحظات جزئية متكررة إلى قاعدة عامة يغلب على الظن صحتها، أي هو حركة من الجزء إلى الكل، حيث لا يوجد قاعدة جاهزة، بل يتم بناؤها من خلال المشاهدات، لذلك هو دليل ظني أو راجح يتم تقويته بكثرة الأمثلة ويَضعف بقلتها، مثال ذلك أن القصص القرآني هو تقرير للسنن عبر الاستقراء التاريخي، حيث يُستقرأ منها، سنن الله في الأمم؛ ومثال ذلك: أن الظلم إذا بلغ مداه نزل العذاب، أو وقع السقوط، وهذا الحكم ليس نصًا منطوقًا بصيغته العامة، لكنه نتيجة استقرائية نستخرجها من تكرار النمط؛ كالقول: كل الغربان التي شوهدت حتى الآن سوداء، إذًا كل الغربان سوداء.

ويقوم المنهج الاستقرائي على الانتقال من الجزئيات إلى الكليات، أي من الملاحظات والوقائع الفردية إلى صياغة تعميمات أو نظريات عامة. حيث يبدأ الباحث بالمشاهدة وجمع البيانات، ثم يستخلص منها قواعد أو فرضيات عامة.

ويستخدم أصحاب هذا المنهج مداخل بحثية[1] تساعدهم في الوصول إلى إثبات الحقائق من عدمها.

وعليه، فالاستنباط يعطي اليقين لأنه يستخرج الخاص من العام، أما الاستقراء فيعطي الحكمة لأنه يصنع العام من تكرار الجزئيات.

وقد ميّز الغزالي في المستصفى بين العلم الضروري الناتج عن مقدمات يقينية وهو من جنس الاستنباط، وبين العلم المكتسب بالعادة والتجربة، وهو من جنس الاستقراء.

أما العقل السليم فيجمع بين المنهجين آخذاً من النصوص قواعده الكبرى بالاستنباط، ويستقرئ الواقع وسنن الله في الكون بالقراءة. فالأول يبني اليقين والثاني يبني الفهم، وكلاهما كما يقول ابن خلدون مفتاح لمعرفة سنن الله في خلقه، ويعمل كل منهما في ساحة مختلفة.

[1] المداخل البحثية التي تتبع المنهج الاستقرائي: تشمل المداخل الوصفية، والمسحية، والميدانية، والتاريخية، والكيفية، ودراسات الحالة، وجميعها تبدأ من الواقع والجزئيات لتبني نظريات أو تعميمات عامة. هذا يجعلها مثالية في المجالات التي تحتاج إلى اكتشاف الأنماط أو بناء نظريات جديدة بدلًا من اختبار نظريات قائمة.

المبحث الخامس
المنهج والقصص القرآني

تمثل القصص القرآنية منهجًا علميًا متكاملاً، الغرض منها بناء شخصية متوازنة تجمع بين الرصانة العلمية والعمق الإيماني والأخلاقي. فهي تُربي العقل على التدبر والاستدلال، كما تُربي النفس على الالتزام بالقيم.

القصص القرآني والمنهج العقلي

تُعدُّ القصص أداة تعليمية مقتبسة من تجارب الآخرين، متجاوزة السرد التاريخي أو الترفيهي، لأنها تعمل على ترسيخ الأسس العلمية والفكرية في نفوس المستمعين والقارئين. وذلك من خلال:

* **تحفيز** التفكير النقدي والتأملي، من خلال عرض أحداث القصص كوقائع، فتدفع المتلقي إلى التفكر والتدبر في الأحداث والعبر المستخلصة منها.
* **تقدم** نموذجًا استدلاليًا، لاعتمادها على عرض الحجج والسنن الإلهية في التاريخ، وهذا ما يساعد في استنتاج قوانين تحكم الكون والمجتمعات.
* **تنظر** للعلم كوسيلة لتحقيق أهداف سامية كالتوحيد، والصبر، والتقوى، والعدالة، ودفع الظلم.
* **ترسخ** الفكرة في ذهن المتلقي بتكرار بعض القصص أو عناصرها في مواضع مختلفة.

القصص القرآني والمنهج التجريبي

تزود القصص القرآنية العقل بأدوات تسهم بتطوير المناهج التجريبية، من خلال تقديم قصص تطبيقية حيّة لهذا المنهج القائم على: الملاحظة، واختبار الفرضيات، والاستدلال، ومثال ذلك قصة إبراهيم عليه السلام في بحثه عن الحقيقة كما ورد في سورة الأنعام والتي مرت بمراحل عديدة، كالآتي:

- **مرحلة الملاحظة وبناء الفرضية الأولية**: عندما رأى النجم، فقال: هَٰذَا رَبِّي، كفرضية مؤقتة قابلة للاختبار.
- **مرحلة إعادة الاختبار ببيانات جديدة**: عندما رأى القمر قال: هَٰذَا رَبِّي، مستخدمًا دليلاً تجريبيًا جديدًا (أكبر وأكثر إشراقًا) لإعادة تقييم فرضيته السابقة.
- **مرحلة التحقق والاستنتاج النهائي**: عندما رأى الشمس قال: هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ، وبعد أن أفَلَت كل هذه الأجرام، أدرك أنها مخلوقات متغيرة لا تصلح للألوهية، وخلص إلى الاستنتاج القاطع: **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (الأنعام: ٧٩).

وبذلك قدمت القصص سننًا إلهية وقوانين ثابتة في التاريخ والمجتمعات، وهذا يعزز التفكير التحليلي القائم على استخلاص العلاقات السببية والنتائج المنطقية.

القصص القرآني والموضوعية

لقد ذكر الله تعالى أحداثًا لم نشهدها، وكان من الممكن إخفاءها وعدم ذكرها، فما الأثر العلمي لهذا الذكر؟

الواضح أن ذكر أحداث لم يشهدها المخاطبون، وذكر أسماء آلهة باطلة بذاتها، ليس مجرد سرد تاريخي عابر، بل هو تطبيق عملي لأعلى معايير الموضوعية، ففيه توثيق تاريخي، كما يؤسس لعلم (النمذجة السلوكية للحضارات)، حيث يكون اختبار الفرضيات بالاستقراء التاريخي. ومثال ذلك ذكر قصص الأمم السابقة: عاد، وثمود، وفرعون، وهذا ما يدفع العقل إلى استخلاص قوانين اجتماعية ثابتة (سُنن) يمكنه تطبيقها على واقعه المعاصر.

كما أن المغزى من ذكر الله تعالى لأسماء اعتقدها بعض الناس في الماضي آلهة أشركوها مع الله وعبدوها مثل: اللات، والعزى، ومناة، وغيرها، فيه ذروة الموضوعية العلمية، لأنه يحمل أبعاداً علمية ومنهجية بالغة الدقة، من ذلك:

- الموضوعية في عرض الفرضيات المنافسة، كمنهج مقارن، فالأبحاث العلمية تذكر فيها الفرضيات المضادة بوضوح ودقة قبل دحضها. وقد مارس القرآن أعلى درجات النزاهة الفكرية عند ذكره لأسماء الأصنام صراحة، كما في سورة النجم: **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى**، فهو لم يقل "آلهتكم" بشكل مبهم، بل ذكرها باسمها الصريح، فكانت حجة قطعية لا لُبس فيها.

- فتح القرآن نافذة على علم الأديان المقارن، فبين أن هذه الأسماء مشتقة من أسماء الله الحسنى (اللات من "الإله"، والعزى من "العزيز")، فكشف عن تحريف الفطرة واختراع آلهة تشبه صفات الخالق، هذا بمثابة تشخيص لمرض فكري مجتمعي.
- جاء بالإبطال كحجة دون الإلغاء، فلم يكتفِ القرآن بإنكارها، بل ذكرها، ثم عرض عليها الاختبار العملي – وهو جوهر هذا المنهج –، حيث تحدى: **أَفَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى**، وفي مواضع أخرى: **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا**. فها هي فرضيتكم (آلهتكم)، وقد وضعت في تجربة المعاينة والبرهان لمعرفة ما إذا كانت تملك نفعًا أو ضرًا.
- إن ذكر هذه الأسماء في مجتمع وثني يعبدها، يعكس درجة شفافية، لأنه يعلن للمتلقي: "أنا أعرف خصومي بأسمائهم الحقيقية، ولن أُغفلهم أو أُحرّفهم، فالحق لا يخشى المواجهة".
- إن طلب البرهان من المدعين بوجود إله غير الله، طلب يرسخ الموضوعية تمامًا، يقول تعالى: **وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** (المؤمنون: ١١٧)، وبما أن الله تعالى هو القوي الجبار الآمر الناهي، فله أن يحذف عبارة: **لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ**، وبالتالي من يدعُ مع الله إلها آخر فإنما حسابه عند ربه، والمعنى المراد لن يتغير، لكن الله تعالى

يُعلّم الناس أن يكونوا موضوعيين، فترك فسحة للمدّعين؛ ممن لديه برهان فليأتنا به، وإلا فسياق الآية واضح.

وبهذا يُدرّب القرآن العقل البشري على قاعدة: أن "العلم الحقيقي" لا يخاف من الماضي (الغيب التاريخي)، ولا يخاف من اسم الخصم (الوثنية)، بل يتعامل معه كموضوع للتحليل والنقد العقلاني، ليُنتج في النهاية إنسانًا مفكرًا لا يتلقى الحقائق إملاءً، بل يبني يقينه على استقراء التاريخ ونقد البدائل. إنها موضوعية الخالق الذي لا يخشى حذف شيء لأنه الواحد الأحد، وحجيته فوق كل شيء.

إذًا؛ الحوار العقلاني هو أسمى عبادة فكرية

المبحث السادس
خواتيم الآيات والمنهج الاستنباطي

الأعجاز لغة جمع عَجُزُ، والعَجُزُ مؤخَّر الشيء، وأعجاز الأشياء أواخرها، وختَمَ الشيء أغلقه بصورة محكمة. وعقِب الآيات وعجزها هو أشبه بغطاء الوعاء، لأنه يُحكم المعنى ويُغلقه.

إن المتدبر لآيات الله تعالى يلحظ أن عقِب الآيات القرآنية – أي الكلمات التي يختم بها الله تعالى بعض آيات كتابه العزيز –، مرتبة بطريقة ملفتة للنظر، خاصة إذا كانت موسومة بأسمائه الحسنى. وبدراسة هذه الظاهرة يتبين أن الخواتيم هي مظهر من الإعجاز البياني، وعند شمولها لأسماء الله الحسنى أو صفاته؛ يتجاوز دورها مجرد إنهاء آية، لتصير أشبه بتوقيع رباني[1].

[1] محمد خيري مصطفي عطية، وعبد الكريم محمد جبل، وإيمان عليوه عباس المنجودي، أسماء الله الحسنى الواقعة تمييزاً في ختام الآيات القرآنية " دراسة تفسيرية "، المجلة العيمة بكلية الآداب، جامعة طنطا، رابط: https://jartf.journals.ekb.eg/article_295350.html

وكما أن لبعض الآيات عجزها، فإن للسور أيضًا عَجُزٌ وخاتمة، وله الدور نفسه لعجز الآيات إنما على مستوى السورة كلها. والشكل التالي يوضح ذلك:

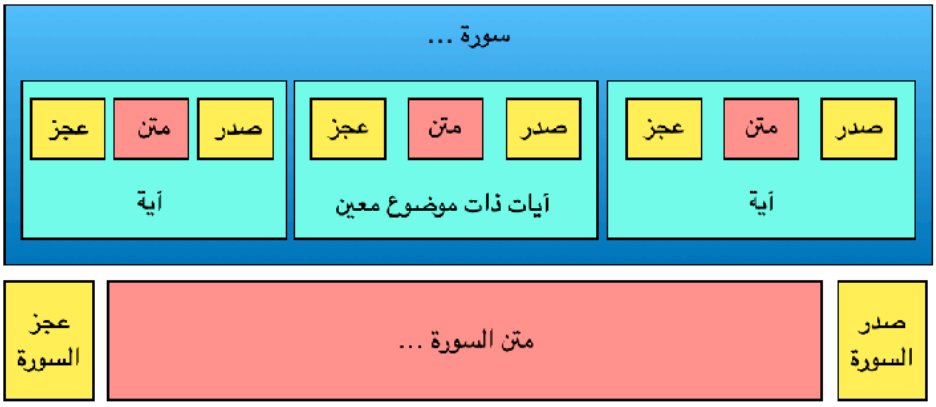

وبربط الحكم المذكور في الآية بصفات الله تعالى، يضفي على معنى الآية أو الآيات – وبأسلوب تلخيصي – ما يؤكد معناها[1]، بوصفها نتيجة منطقية.

ويصعب تبديل هذه الأسماء بغيرها دون أن يختل المعنى المقصود[2]، ومن ذلك[3]:

- الترغيب، كقوله تعالى: غفور رحيم حيث تأتي بعد ذكر التوبة أو الاستغفار.
- الترهيب، كقوله تعالى: عزيز حكيم أو شديد العقاب، حيث تأتي بعد ذكر المخالفات.
- التقرير لتثبيت الإيمان.

[1] السامرائي، د. فاضل، فيديو: لماذا اختلفت خواتيم الآيات في القرآن؟ أسرار بلاغية لنهاية كل آية العلامة، يوتيوب، رابط.
[2] فاروق برحال، ختم الآيات القرآنية بأسماء الله الحسنى بين إعجاز المعنى وروعة البيان، ا جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، موقع الموسوعة القرآنية، رابط.
[3] د. محمد شلبي محمد، ختم الآيات بالأسماء والصفات الإلهية (دراسة تحليلية)، موقع الألوكة الشرعية، رابط.

الدلالة المنهجية لخواتيم الآيات

يتمثل دور خواتيم الآيات في تبسيط الاستنباط، والدلالة عليه، فمثلاً:

- إذا كان دورها تعليلي، فيظهر علة الحكم وسبب تشريعه.
- إذا كان دورها تقريري، فتُثبت الحكم وتؤكده.
- إذا كان دورها توجيهي، فتُوجه المكلف إلى الصفة التي ينبغي أن يتحلى بها أثناء تطبيق الحكم: إخلاص، أو تقوى، أو صبر.
- إذا كان دورها للتوسعة أو للتضييق، فتأتي الخاتمة لتُوسع في الحكم، مثل: (غفور رحيم)، أو لتُضيّقه وتُؤكده، مثل: (عزيز حكيم).

وبناء عليه، لا ينظر الفقيه إلى النص التشريعي بمعزل عن خاتمته، بل يجعلهما وحدة متكاملة لفهم مراد الله من الحكم. فهذه الخواتيم قرائن تُستخدم لسبر المعنى، وضبط الأحكام. وتتباين قيمتها العلمية حسب الناظر إليها:

١. أصول الفقه: تُعتبر خاتمة الآية قرينة سياقية معتبرة تُرجّح معنى على آخر في الأحكام الشرعية، وتمنع الاجتهاد الخاطئ، بضبط استنباط الفقيه بالنظر إلى النص ولصفة الله التي خُتم بها، وأمثلة ذلك:

- عندما يأتي الأمر بفعل ما، وتُختتم الآية ب (إن الله كان غفوراً رحيماً)، فهذه قرينة تُرجح أن الحكم مبني على التخفيف والتوسعة.
- عندما يأتي النهي أو الوعيد وتُختتم الآية ب (إن الله عزيز حكيم)، فهذه قرينة تُرجح أن الحكم مبني على الزجر وإقامة الحدود.

٢ . الإعجاز التركيبي : أثبتت الدراسات اللغوية الحديثة وجود علاقة حتمية بين سياق الآية وخاتمتها، بحيث لا يمكن تبديل خاتمة مكان أخرى دون انهيار المعنى التركيبي ومثال ذلك قصة الأصمعي والأعرابي .

قصة الأصمعي والأعرابي:
رُوي عن الأصمعي، وهو عبدالملك بن قريب بن عبدالملك بن علي بن أصمع الباهلي «١٢١ هـ- ٢١٦ هـ/ ٧٤٠ – ٨٣١ م» راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان أنه قال: كنت أقرأ قوله تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المائدة: ٣٨)، وكان بجانبي شيخ أعرابي فقال: كلام مَن هذا؟ فقلت: كلام اللّه، قال: أعِد، فأعدت. فقال الاعرابي بثقة: هذا ليس كلام اللّه، فاستغرب الأصمعي والحضور من إنكار الإعرابي آية من كتاب اللّه، ثم تنبه الأصمعي للخطأ حيث إنه أخطأ في قراءة نهاية الآية بقوله (وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، والصحيح هو (وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). فقرأ: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فقال الاعرابي : أصبت!، فالتفتُ إليه وقلت: أتقرأ القرآن؟، قال: لا، فقلت : هل تحفظ سورة المائدة؟ (التي بها هذه الآية). قال الأعرابي: لا . فأعجب الأصمعي بنباهة الأعرابي الذي فطن إلى الخطأ رغم أنه ليس من حفظة القرآن، فسأله: يا أعرابي.. كيف عرفت؟ فقال: يا هذا، عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

٣ . التفسير الموضوعي (كشف الأسباب) : تساعد الخواتيم في تحديد السبب الغائي للحدث المذكور في الآية . مثال ذلك، قوله تعالى في آية الإفك : **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ...وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ**. تمنح هذه الخاتمة المتدبر

مفتاحًا لفهم أن حكمة تشريع حد القذف ليست مجرد عقاب وحسب، بل هي باب للتوبة والإصلاح الاجتماعي.

كيف يستنبط الفقهاء والأصوليون الأحكام الشرعية من خواتيم الآيات؟

مثال: الحث على النفقة بالتوفيق بين البذل والجزاء، في آيات الحث على الإنفاق في سبيل الله، تأتي الخواتيم مُذكّرة المتصدق بعلم الله المحيط وعدله المطلق، وهذا يدفعه للإخلاص والثقة بأن عمله لن يضيع، يقول تعالى: **مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (البقرة: ٢٦١). واسم الواسع يفيد سعة فضل الله وكرمه الذي لا ينضب، واسم العليم يفيد علمه بنية المنفق وإخلاصه. فتعلل الخاتمة المضاعفة، بعد أن أشعرت المنفق بأن الله يعلم سريرته وسيُجازيه على قدرها، وهذا ما سيُعزز حكم استحباب الإنفاق ويدفع إلى الإخلاص فيه.

وكذلك قوله تعالى: **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (البقرة: ٢٧٤)، لم يُختتم بوصف إلهي، مما يُشير إلى أن الأجر مضمون بمجرد تحقق صفة الإنفاق في كل الأوقات والأحوال، فكانت الخاتمة مناسبة لتقرير الأجر دون تعليق.

مثال: قاعدة اليقين – لا يُكلف الله نفسًا إلا وسعها: هي قاعدة تُعد أصلاً في التيسير ورفع الحرج، خُتمت بها أطول آية في القرآن (آية الدين)، لتكون مقررة

لكل أحكام المعاملات. قال تعالى: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**... (البقرة: ٢٨٦). وهذه الخاتمة ليست مجرد وصف، بل هي قاعدة كلية في الاستنباط الفقهي، تُفيد أن جميع التكاليف الشرعية مرتبطة بطاقة المكلف، وهو أصل يُبنى عليه كثير من أحكام التخفيف في العبادات والمعاملات.

المبحث السابع
الحاجة إلى التجديد المنهجي

إن حديث التجديد الذي خص (كل مئة سنة)، هو مؤشّر منهجي، لأنه ربط نبوي بين (التجديد والزمن)، يثبت أن التجديد حاجة واقعية وليس ترفًا فكريًا.

عوائق تحجز العقل البشري

يُمارس المسلمون شعائر عقيدتهم جهاراً، وتُنقل على جميع وسائل التواصل، وهذه شفافية غير موجودة عند غيرهم، سواء من أتباع اليهودية والنصرانية كأديان سماوية بعدما أصابها من تحريف، أو من غير الأديان السماوية مما ابتدعه بعض الناس، حيث تكون ممارسة شعائرها سراً أو لفئة محددة منهم دون غيرهم، أو لمن تجاوز عمراً محدداً.

إن شفافية الممارسة العلنية بالصوت والصورة وبالنص تكون أداة نشر للآخرين، مما يتيح لهم الاطلاع على محتوى الشريعة الإسلامية فيتعلمون ويناقشون، بينما الإنغلاق في غير شريعة الإسلام يمثل عائقًا وحاجزاً للفكر الإنساني يمنعه من الوصول للمعلومة ومعرفة قيمتها العلمية ليحاكمها بحرية.

عوائق فساد الفكر:

إن ما تم فضحه من معتقدات الفرق الباطنية كالشيعة والنصيرية والدروز وغيرهم ممن يغلقون التعلم حتى على أفراد الطائفة لحين بلوغهم سنًا معينة أو لذكورهم دون نسائهم، ويُخبّئون كتبهم التي تشرح عقيدتهم عن الآخرين، حتى جاءت

مؤخراً مناسبات أوصلت تلك الوثائق للناس جميعها، فبانت عورات تلك الطوائف وسُخف معتقداتها.

وساعد سرعة انتقال المعلومة على بيان تلك العوائق، مما جعل البشرية تدخل زمناً جديداً. فلا حاجة للانتقال للعيش مع تلك الفرق والجماعات كما فعل الغزالي في المنقذ من الضلال، بل صار بالإمكان الحصول على أية معلومة دون عوائق.

عوائق زمانية[1]:

هرب فتية الكهف بدينهم ليختبئوا في كهف يأويهم، فأماتهم الله أكثر من ٣٠٠ عام ثم بعثهم لينشروا رسالتهم التي اختبؤوا من أجلها، ولم يتركهم ليعيشوا بعدها، بل أعادهم إلى القبر، أي أن أولئك الفتية لن يستطيعوا استئناف حياة تبتعد عن حياتهم كل هذه السنوات.

كما ليس لمسلم فكّر في زمن ما، أن يُفكّر غيره بدلاً عنه ممن يأتي بعده، فتحصيل العلم واجب عيني، لقوله صلى الله عليه وسلم: **(طلبُ العِلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ)**[2].

عوائق مكانية:

انتشر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصقاع الأرض ينشرون دينهم في كل مكان، دلَّ على ذلك قبورهم المنتشرة في كل مكان كدليل على وصولهم لتلك الأماكن.

---

[1] بوعزة، د. الطيب، جلسة حوارية بعنوان: مشروع التجديد المنهجي بين العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية، يوتيوب: رابط.

[2] حديث صحيح، الجامع الصغير للسيوطي.

العلم لا يُورث كما الدار والشجر والحجر

لطالما فكرت في قضية عدم انتقال العلم كإرث المال والعقار وغيره – كما ذكرنا سابقًا –، فما سمعنا بعالم صار عالمًا لأن أباه كان عالمًا، بل لابد أن يسلك طالب العلم درب التعلم، فيشقى ويتعب في تحصيل العلم، ويكون طريقه مُكلفًا ماديًا، ويحتاج وقتًا، ومستنفداً جهده. هذا على مستوى الفرد.

أما على مستوى الأمة، فيهيئ الله تعالى لأمة الإسلام من يجدد لها دينها وأمر دينها كل مائة عام، ليكون رافعة علمية للأجيال دون توقف أو مهاودة. وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم للتجديد بقوله: **(إنَّ اللهَ يبعثُ لهذه الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يُجدِّدُ لها دينَها)** وفي رواية **(أمرَ دينِها)**.

وقد خُص ذكر الزمن بالتجديد ليتميز العلم عن غيره من المخلوقات التي حكم الله عليها بالفناء حُكمًا خلال مدة محددة لا تجديد ولا بقاء لها بعدها، أما العلم وهو مادة الفكر والعقل والفهم والوعي، فشُرع له التجديد، وإذا تقاعس البعض عن السعي له، سخّر الله من يقوم بهذه المهمة. لذلك يعيش الفكر ويتجدد مع حركية الزمن، وتضمن هذه الحركية تنقيته، كما هو حال ماء النهر الجاري الذي يغتسل منه المصلي ليتخلص من كل دَرَن، روى أبو هريرة رضي الله عنه: **(أنَّهُ سَمِعَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: أرَأَيْتُمْ لو أنَّ نَهَرًا بباب أحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فيه كُلَّ يَومٍ خَمْسًا، ما تَقُولُ ذلكَ يُبْقِي مِن دَرَنِهِ؟ قالوا: لا يُبْقِي مِن دَرَنِهِ شيئًا، قالَ: فَذلكَ مِثْلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ به الخَطايا)**.

المنهج الإسلامي لا يخاف التجديد ولا حركته

إنه بسبب رسوخ[1] العلم في مفاصل الشريعة الإسلامية؛ قرآنًا وسنة وإجماعًا، فلا خوف من التجديد ولا من حركته أبدًا، فالعقول نيرّة مشرئبة لاستقبال كل معلومة ومحاكمتها، والقلوب السليمة بمثابة حارس أمان لاستقبالها، وميزانها الفطرة السليمة. فلو جاء التجديد ببعض الأفكار غير السليمة فإن اليقظة العقلية والقلبية كفيلة بتنقيتها من كل شائبة بسبب حرية النقد. ولأجل ذلك جُعلت الحكمة ضالة المؤمن وشُرّعت له كحقٍ، بغض النظر عن مصدرها، لقوله صلى الله عليه وسلم: **(الكلمةُ الحِكْمَةُ ضالَّةُ المؤمنِ، فحَيْثُ وجدها فهو أَحَقُّ بها)**[2].

كان ذلك إيذانًا من المشرّع صلى الله عليه وسلم بحرية تلقف المعلومة بغض النظر عن مصدرها، مما فتح آفاق التعلم من أي شيء ومن كل شيء دون وجل، مادام **معيار العلم، فطرة سليمة ميزانها القلب، وعقل سويٌّ ميزانه الحكمة**.

وعندما[3] أصيبت الأمة بانحطاط طال أمده حَجزت عقول أبنائها ودعتهم إلى التقيِّد بالتقليد دون الابتكار والإبداع. فكان خطر التقليد أشدُّ من مخاطر التجديد.

لذلك شبَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم المقلدين كمن دخل جحر ضب، فقال: **(لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بذِرَاعٍ، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قالَ: فَمَنْ؟)**[4].

[1] مرجع سابق، مقتبس من الجلسة الحوارية، بتصرف.
[2] حديث حسن، السيوطي، الجامع الصغير.
[3] مرجع سابق، مقتبس من الجلسة الحوارية، بتصرف.
[4] صحيح البخاري

بذلك رسم صلى الله عليه وسلم طريقين، وجب على أصحاب العلم والحكمة الاختيار بينهما:

الأول: نفق أشبه بجحر الضب المسدود.

الثاني: سُلَّم في السماء لا نهاية له ما دامت النفوس متعطشة للعلم.

طلب الفقه فرض كفاية

يجب على بعض الناس أن تتفرغ للفقه، تكون مهمتهم بيان شريعة الله وتوضيحها للناس، وإنذارهم لعدم الوقوع في المحارم، قال تعالى: **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** (التوبة: ١٢٢).

والفقه الإسلامي ركن منيع يحمي شريعته من خلال علماء وفقهاء فاقوا رجال عصرهم على مرِّ التاريخ الإسلامي، نتاجهم الفردي تنوع على مستوى كل عالم وفقيه، وتميز بعضهم بتفكير جماعي، كحال مجلس أبي حنيفة، ومشروع مجلة الأحكام العدلية، ومجامع الفقه الدولية، ومجامع اللغة العربية، ومعايير الأيوفي.

وارتبطت مخرجات هذه المجامع الفكرية بنهوض الأمة واستعادة دورها التاريخي، وتميز كل منها بمنهج بحثي حقق الكثير من المنجزات الفكرية.

ولربما[1] نحتاج في هذه الأيام إلى إنشاء فرق بحثية أسوة بالمجتمعات المتقدمة، لتقديم أبحاث تخصصية دقيقة وعميقة، وتُعاد دراساتها كل فترة زمنية لتتبع التحولات

[1] مرجع سابق، مقتبس من الجلسة الحوارية، بتصرف.

المجتمعية واتجاهاتها، لرصد تبدل الواقع بتغير الزمن وليس لتبدل الحياة. فعندما عرض فتية الكهف وَرِقهم في المدينة اصطدموا، بتغير بنية المجتمع، مما جعل استمرار حياتهم غير ممكن، لذلك يحتاج التغيير إلى فقه الحياة وفهم معناها.

لماذا كان التجديد بلفظ المنهج؟

إنه بدراسة بعض مناهج التجديد الإسلامي[1]، يلاحظ أنها ركزت على نقد الأفكار، ولم تكن كآلة لإنتاج تلك الأفكار، بينما تحولات الفكر في التاريخ تكون في التحولات المنهجية، وكثير من الصراعات والصدامات في الفكر الإسلامي المعاصر حاصلة بسبب مُصارعة الأفكار بالأفكار، دون النظر لخلفية إنتاج ذلك الفكر.

وعليه، لا يجب أن يكون المنهج عائقًا أمام التجديد، وإن كثرة قواعد المنهج وتعدد مفاهيمه تعقد عملية التفكير.

والمنهج أشبه بالإضاءة، وبقدر ما يضيء النقطة التي يتوجه إليها، يخفي بظلاله مساحة هائلة، لأن المناهج هي منظورات للنظر، تضيء بقدر ما تخفي. ولابد أن يتصف المنهج بالرشاقة بعيداً عن كونه قالبًا يُنمذج الفكر ويعيق طريقه. كما

[1] د. حسب الرّسول العباس محمد، المدخل إلى مناهج المفسِّرين، بحث منشور في مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد الرابع عشر ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م.

مناهج المفسرين:

هي الطرق التي يتبعها المفسرون في تفسير كتاب الله تعالى. ذلك أن منهم الذي يعتمد على الرواية، ومنهم من يعتمد على الدراية، ومنهم من يجمع بين الرواية والدراية، ومنهم من يعتمد على الفهم الشخصي والمجال الذي تخصص فيه.

ومن هنا برزت عدة مسميات: كالتفسير بالمأثور، والتفسير الموضوعي، والتفسير الصوفي الإشاري، والتفسير الصوفي النظري، والتفسير العلمي، والتفسير البدعي الذي يؤول كلام الله ويحمله معاني فاسدة وبعيدة عن النص القرآني الكريم.

يجب أن يتخفف من أثقال الماضي، مع ارتباطه بمرجعية تمده بالثبات وعدم الحياد أو الشطط، كمرجعية الوحي الثابتة. وأمثلة ذلك:

محاكاة القرآن الكريم لأصحاب العقول الاستنباطية المتدبرة

مثال -١- هل إبليس من صنف الملائكة؟

إن المتأمل لآيات سورة البقرة (٣٠ – ٣٤ – ٣٦) والآية رقم (١١) من سورة الأعراف، يظن أن إبليس هو من صنف الملائكة، لوجوده في حوار رب العزة مع ملائكته، وامتثالهم لأمر الله تعالى عندما خاطبهم بالسجود لآدم، أما إبليس فأبى واستكبر.

ثم تأتي الآية رقم (١٢) من سورة الأعراف لتوضح لنا وبلسان إبليس نفسه بأنه لم يُخلق من نور بل من نار بينما آدم خُلق من طين.

إن هذه الآيات توضح أن العقول الاستنباطية المتدبرة تستطيع جمع الحقائق وتركيبها لتبدو صورتها واضحة، وكأن الإنسان القارئ كان يعيش تلك اللحظات، وهذا حث من الله تعالى لترقية آليات التفكير عند الإنسان وجعلها مدركة عاقلة ولو في الغيب الذي لم يشهده. ولو أراد الله، لذكَر هذه الحقيقة ببساطة في صدر قرآنه الكريم لتصل إلى جميع الأفهام، لكنه تعالى يُميّز العاقل من غيره كما يُميز العالِم من غيره، فيسألنا وهو العليم: **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** (الزمر: ٩)، والجواب طبعًا لا يستوون، وهذا واضح وجلي عند أولي الألباب من أصحاب العقول السليمة.

آيات سورة البقرة:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (البقرة: ٣٠)، إلى قوله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (البقرة: ٣٤)، إلى قوله تعالى: فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (البقرة: ٣٦).

آيات سورة الأعراف:

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (الأعراف: ١١)، ثم قوله تعالى: قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (الأعراف: ١٢).

مثال -٢- المعقول المتاح والمعقول المضاف

إن المعقول المتاح واضح في قول زكريا عليه السلام عندما بشرته الملائكة بغلام، فأورد عليه السلام الحجج العقلية الدالة على ما يقول، ثم جاء المعقول المضاف من الملائكة بأن مشيئة الله هي الفاعلة، يقول تعالى في وصفه لهذا الحوار: قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (آل عمران: ٤٠).

إذاً المعقول المتاح هو في استغراب زكريا عليه السلام من تلبية دعائه وتحقيقه فهو طاعن في السن وزوجته كبيرة وعاقر. والمعقول المضاف هو في قول الله تعالى: **قَالَ كَذَٰلِكَ**.

والشيء نفسه حصل مع مريم عليها السلام التي حاججت بما تعقله: **قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (آل عمران: ٤٧). فكان المعقول المتاح في استغراب مريم عليها السلام من إنجابها ولداً دون أن يمسها رجل. والمعقول المضاف هو في قوله تعالى: **قَالَ كَذَٰلِكَ**.

والشيء نفسه حصل معها عليها السلام، عندما قالت لقومها وهم ينظرون إليها وهي تحمل ابنها وفي نظراتهم وقولهم التهمة لها، قال تعالى في وصف الموقف: **قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** (مريم: ٢٧–٢٨)، فما كان من مريم إلا أن أشارت لوليدها ليكلموه. فكان المعقول المتاح أن تشير لهم ليكلموا وليدها، لأنها تبحث عن مخرج لما هي فيه، فالناس تحاور العاقل المميز وليس الرضيع، قال تعالى: **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** (مريم: ٢٨–٢٩). والمعقول المضاف هو رد عيسى عليه السلام المعجز لإبراء أمه بإذن الله.

فما المنهج الذي يمكن أن يحرر العقل المسلم اليوم ليعطيه فقه الحياة لفهم وتدبر شؤونها رغم تنوعها؟ دون أن يُقيده، ودون أن يفصله عن مرجعيته...

إن[1] الشخص الذي يضع نقطة التحول الفكري والاجتماعي الهائلة ليس هو الذي ابتدع كتبًا أو ابتدع تنظيرات كبيرة جدًا. فطاليس قال: إن الكون أصله ماء وقدَّم **الدليل**، فأشعر الفكر بأن الطرح يجب أن يكون مقرونًا باستدلال. وحركة العقل مع الدليل هي حركة نحو المنهج، وعندما يستدل القائل أو المفكر بدليل عقلي فإنه ينقل الفكر إلى الأمام، أما الشعر والسرد القصصي فغير مطالبان بالاستدلال.

إذًا: **المنهج الذي لا يستطيع تفسير واستيعاب الواقع يجب أن يخضع للتغيير**.

وإن إعادة التأسيس المنهجي للتفكير ضرورة، طالما أن الزمن يتبدل، ويشهد بذلك حديث (المائة سنة).

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وكما ورد في السيرة النبوية، يذهب إلى مكة زمن الشرك ويصلي في مكة مع أزيد من ٣٠٠ صنم؛ لم يُقارعها بالحجر، لأنه كانت له بصيرة تغيير المنهج الفكري. لذلك لابد أن يُغيَّر منهج التفكير الذي يقدس الحجر، وعندما تغير المنهج لم يعد للحجر قيمة، وهذا عكس الذين سعوا لإسقاط أحجار التماثيل كما في أفغانستان وغيرها من الآثار وهدمها. فالصحابة شهدوها ولم يفعلوا، بالمقابل دعا عليه الصلاة والسلام المؤمنين للإسراع في أرض الأقوام الظالمة وليس هدمها لأن القرآن تركها كدليل على أناس قد مضوا ولم يتركوا أثرًا سوى الحجر فاندثر ذكرهم.

[1] مرجع سابق، مقتبس من الجلسة الحوارية، بتصرف.

وإن الناظر في كتاب (الرسالة) للشافعي، يجده قد رتب الأدلة وأطلق حركة فكر قوية، لأنه كتاب في المنهج، ولو قورن الشافعي بفقهاء آخرين تجدهم كتبوا مئات الكتب والمجلدات، والآخر برسالة وجيزة غيَّر طريقة التفكير، وكذلك فعل ابن خلدون، فكتب سلسلة كتاب العِبر بمجلدات ضخمة لا يمكن حملها، ولم يبق منها إلا المقدمة، لأنها هي المنهج.

المبحث الثامن
منهجية قواعد أصول البناء

تشير قواعد أصول البناء بشكل ترتيبي بعضها على بعض، بتقديم قاعدة أصولية على أخرى يتم استخراج حكم شرعي. وهذا منهج تكاملي بين العلوم.

قواعد أصول البناء

تشير **قواعد أصول البناء** إلى منهجية تأسيس القواعد الأصولية نفسها، أي كيف تُبنى القواعد التي تُستخدم لاحقًا في استنباط الأحكام الشرعية. ويُعرف هذا المجال باسم **نظرية التقعيد الأصولي**[١] أو **بناء الأصول على الأصول**[٢]، وهو من أعمق مباحث أصول الفقه وأكثرها تجريداً.

قواعد أصول البناء الأصولي

قواعد أصول البناء هي القواعد التي تُبنى عليها القواعد الأصولية، أي أنها قواعد تأسيسية، تُستخدم لتقعيد القواعد الأصولية الوسطى والصغرى.

١ . نظرية التقعيد الأصولي: هي دراسة فلسفية للقواعد الكبرى والوسطى التي ترجع إليها قواعد أصول الفقه.

[١] البدارين، د. أيمن عبد الحميد، نظرية التقعيد الأصولي، دار ابن حزم ببيروت، ٢٠٠٦.
[٢] الودعان، د. وليد بن فهد، بناء الأصول على الأصول، رسالة دكتوراة جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٢٨ هـ.

حيث هناك قواعد كبرى تُبنى عليها قواعد أصول الفقه. كقاعدة: "الحُسن والقبح إضافي لا ذاتي"، وتُبنى عليها قواعد تتعلق بالتحسين والتقبيح العقلي. فتراها تميز بين:

- القواعد الكبرى: كقاعدة "الأصل في الأشياء الإباحة".
- القواعد الوسطى: مثل "العام يُخصص بالمطلق".
- القواعد الصغرى: مثل "اللفظ المشترك يُحمل على جميع معانيه إذا أمكن".

٢. بناء الأصول على الأصول: تهدف إلى بيان الترابط بين القواعد الأصولية وكيفية استنباط الأحكام منها. فهي:

- تدرس كيف تُرتب القواعد الأصولية على بعضها البعض لاستخراج الحكم.
- توضح أن الفقيه لا يستنبط الحكم مباشرة من النص، بل يمر عبر سلسلة من القواعد المرتبطة ببعضها.

مثال ذلك: قاعدة "الظاهر لا يُعارضه القياس" المبنية على قاعدة "النص مقدم على الظن". وتتجلى أهمية ذلك:

- بالمساعدة في فهم **المنهجية العقلية** التي يستخدمها الفقيه في الاجتهاد.
- بالربط بين **العلوم الشرعية** المختلفة: الفقه، وأصوله، واللغة، والمنطق.
- بالتمكين من بناء **نظام فقهي متماسك**، حيث لا تكون الفروع متناقضة أو متضاربة.

تلخيص القواعد وخطوات تطبيقها على أمثلة فقهية

يمكننا تحليل قاعدة أصولية وتفكيك بنيتها حسب هذا المنهج، والذي يكشف عن رغبة عميقة في الانتقال من الفهم النظري إلى التطبيق العملي، وهو جوهر المنهج الأصولي الحقيقي. ولتطبيق **قواعد أصول البناء** في دراسة الفقه، يحتاج للتعامل مع الأحكام الفقهية كنتاج لسلسلة من القواعد المرتبطة ببعضها، لا مجرد فتوى معزولة.

خطوات تطبيق قواعد أصول البناء في دراسة الفقه

١. تحليل الحكم الفقهي إلى عناصره الأصولية: يُنظر إلى الحكم الفقهي موضوع الدراسة، ثم يتم التساؤل:

- ما الدليل عليه؟ (نص، إجماع، قياس، استصحاب...).
- ما نوع هذا الدليل؟ (عام، خاص، مطلق، مقيد...).
- هل هناك تعارض بين الأدلة؟ وكيف يُرجّح بينها؟

مثال: حكم وجوب الزكاة في الذهب.

- الدليل: حديث النبي صلى الله عليه وسلم.
- نوع الدليل: عام أم خاص؟ هل يشمل الحلي؟ هل هناك تخصيص؟
- هل هناك تعارض مع أقوال الصحابة؟ كيف يُرجّح؟

٢. تحديد القواعد الأصولية المستخدمة

لكل خطوة استدلالية، هناك قاعدة أصولية تحكمها:

- هل استخدم الفقيه قاعدة "العام يُخصص بالمطلق"؟

- هل اعتمد على "الظاهر لا يُعارضه القياس"؟
- هل رجّح النص على الظن؟ أو قدّم الاستصحاب؟

مثال: مسألة بيع الدين بالدين، يرفضها الفقهاء بناءً على قاعدة "النهي يقتضي الفساد"، وهي قاعدة أصولية تُبنى على قاعدة أكبر: "الأصل في النهي التحريم".

٣. تتبع تسلسل البناء القاعدي

يتم رسم خريطة ذهنية لبيان كيف بُني الحكم:

قاعدة كبرى: الأصل في النهي التحريم.

قاعدة وسطى: النهي يقتضي الفساد.

قاعدة صغرى: بيع الدين بالدين منهي عنه.

الحكم الفقهي: بيع الدين بالدين فاسد.

وهذا يُظهر كيف أن الحكم ليس مجرد فتوى، بل نتيجة بناء قاعدي متسلسل.

٤. مقارنة بين المذاهب الفقهية من زاوية البناء الأصولي

بدل القول: "المالكية قالوا كذا والشافعية قالوا كذا"، يجب التوقف عند:

- القاعدة الأصولية التي اعتمدها كل مذهب.
- هل اختلفوا في فهم النص أم في ترتيب القواعد؟
- هل أحدهم قدّم قاعدة على أخرى؟

مثال: مسألة "النية في الوضوء"، المالكية يرونها شرطًا، والحنفية لا. السبب؟ أن المالكية يُقدّمون قاعدة "الأصل في العبادة القصد"، بينما الحنفية يُرجّحون قاعدة "النية ليست شرطًا في الطهارة لأنها ليست عبادة مستقلة".

٥. وكنتيجة: تُبنى الدراسة الفقهية على هذا المنهج: عند كتابة بحث أو دراسة فقهية، يكون الهيكل كالآتي:

- المسألة الفقهية
- الدليل الشرعي
- التحليل الأصولي
- تسلسل القواعد
- الترجيح بناءً على البناء القاعدي

مثال: حكم بيع العينة

بيع العينة هو أن يبيع شخص سلعة بثمن مؤجل، ثم يشتريها منه نقداً بثمن أقل. كأن يبيع زيد سيارة لعمر ب ١٠٠ ألف مؤجلة، ثم يشتريها منه فوراً ب ٨٠ ألف نقداً.

الخطوة ١: تحديد الحكم الفقهي

- جمهور الفقهاء يرون أن بيع العينة محرم لأنه حيلة على الربا.
- بعض الظاهرية أجازوه لأنه لا يوجد نص صريح يمنعه.

الخطوة ٢: تحديد القواعد الأصولية المستخدمة

القاعدة الكبرى: "سد الذرائع واجب إذا أفضت إلى مفسدة محققة".

القاعدة الوسطى: "الحيلة على المحرم تأخذ حكمه".

القاعدة الصغرى: "كل عقد يُفضي إلى الربا يُمنع ولو كان في صورة بيع".

الخطوة ٣ : تسلسل البناء القاعدي

قاعدة كبرى: سد الذرائع واجب

قاعدة وسطى: الحيلة على المحرم محرمة

قاعدة صغرى: بيع العينة حيلة على الربا

الحكم الفقهي: بيع العينة محرم

الخطوة ٤ : تحليل الخلاف بين المذاهب

- **المالكية والحنابلة**: يُحرّمونه بناءً على قاعدة سد الذرائع.
- **الظاهرية**: يُجيزونه لأنهم لا يأخذون بسد الذرائع، ويعتمدون على ظاهر النصوص فقط.
- **الحنفية**: يُجيزونه بشروط، لأنهم يُفرّقون بين الصورة والمقصد، ويُقدّمون قاعدة "العبرة في العقود بالألفاظ لا بالنيات".

الخطوة ٥ : توظيف النتائج في الدراسة الفقهية

- يتبيّن أن الحكم ليس مجرد فتوى، بل نتيجة بناء قاعدي متكامل.
- يُساعد على فهم سبب اختلاف الفقهاء، ليس فقط في النص، بل في ترتيب القواعد.
- الترجيح بين الأقوال بناءً على قوة البناء الأصولي، لا مجرد كثرة القائلين.

مثال: حكم التأمين التجاري

التأمين التجاري هو عقد بين طرفين، يدفع فيه أحدهما أقساطًا منتظمة مقابل تعويض مالي عند وقوع خطر معين (مثل الحريق أو الوفاة أو الحوادث) .

الخطوة ١ : تحديد الحكم الفقهي

- جمهور العلماء المعاصرين يُحرّمونه .
- بعض المجامع الفقهية تجُيز التأمين التعاوني وتحُرّم التجاري .
- بعض الفقهاء يُجيزونه بشروط .

الخطوة ٢ : تحديد القواعد الأصولية المستخدمة

القاعدة الكبرى: "الأصل في المعاملات الإباحة ما لم يرد دليل على التحريم" .

القاعدة الوسطى: "كل عقد يتضمن غرراً فاحشًا يمُنع شرعًا" + "الضرر يزال" .

القاعدة الصغرى: "الغرر في التأمين التجاري غير مغتفر لأنه في المعاوضات المالية" + "الجهالة في مقدار التعويض ومتى يقع تُفضي إلى النزاع" .

الخطوة ٣ : تسلسل البناء القاعدي

قاعدة كبرى: الأصل في المعاملات الإباحة .

قاعدة وسطى: الغرر الفاحش يمنع الإباحة .

قاعدة صغرى: التأمين التجاري فيه غرر وجهالة .

الحكم الفقهي: التأمين التجاري محرم .

الخطوة ٤ : تحليل الخلاف بين الفقهاء

الفريق	القاعدة المرجّحة	النتيجة
المحرّمون	"الغرر الفاحش يمنع صحة العقد"	التحريم
المجوّزون	"الحاجة تُنزل منزلة الضرورة" + "الغرر مغتفر في العقود الحديثة"	الجواز بشروط
المجيزون للتأمين التعاوني فقط	"التعاون على البر" + "الربا والغرر منتفيان في التعاوني"	التعاوني جائز، التجاري محرم

الخطوة ٥ : توظيف النتائج في الدراسة الفقهية

- الحكم الفقهي ليس مجرد رأي، بل نتيجة بناء قاعدي متسلسل.
- الخلاف بين الفقهاء ناتج عن اختلاف في ترتيب القواعد أو في تفسير الغرر.
- يُرجّح القول الأقوى بناءً على قوة البناء القاعدي، لا فقط على ظاهر النص أو كثرة القائلين.

المبحث التاسع
منهجية التفكير الفقهي

الأسس الفكرية للمذهب الحنفي

أسسه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (٨٠ هـ – ١٥٠ هـ)، يتميز بأساسيات فكرية فقهية جعلته من أكثر المذاهب انتشاراً وتأثيراً في العالم الإسلامي. أما أبرز أسسه الفكرية:

١. الاعتماد على العقل والرأي

- يُعرف المذهب الحنفي بأنه "مذهب أهل الرأي"، حيث يُعلي من شأن الاجتهاد العقلي في فهم النصوص.
- الإمام أبو حنيفة كان يقدّم القياس والاستحسان في كثير من المسائل التي لم يرد فيها نص صريح.

٢. القياس كأداة رئيسة

- القياس هو أحد أهم أدوات الاجتهاد في المذهب الحنفي، ويُستخدم لتطبيق حكم شرعي على مسألة جديدة بناءً على مشابهتها لمسألة منصوص عليها.

٣. الاستحسان

- يُعد الاستحسان من أبرز ما انفرد به المذهب الحنفي، وهو ترجيح حكم على آخر بناءً على مصلحة أو عدالة، حتى لو خالف القياس الظاهري.
- يُستخدم لتجاوز الجمود الفقهي وتحقيق مقاصد الشريعة.

٤. الاعتماد على العرف والعادة

- يُولي المذهب الحنفي أهمية كبيرة للعرف، ويعتبره مصدراً من مصادر التشريع، خاصة في المعاملات.

٥. مرونة التطبيق

- يتميز المذهب الحنفي بالمرونة في الفتوى، مما يجعله مناسباً لتطبيقه في أنظمة القضاء والإدارة في الدولة الإسلامية، وظهر ذلك في العهدين العباسي والعثماني.

٦. ترتيب علم الشريعة

- الإمام أبو حنيفة كان أول من رتّب أبواب الفقه بشكل منهجي، بدءاً من الطهارة ثم الصلاة، ثم المعاملات، مما ساعد على تنظيم الفقه الإسلامي وتيسير تدريسه.

٧. الاهتمام بالجانب الكلامي

- في العقيدة، يرى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأنه مركب من التصديق والإقرار.
- يؤمن بأن معرفة الله واجبة بالعقل، وهو ما يعكس نزعة عقلانية في أصوله الكلامية.

الأسس الفكرية للمذهب المالكي

منسوب إلى الإمام مالك بن أنس (٩٣ هـ – ١٧٩ هـ)، يتميز بأسس فكرية تجمع بين **التمسك بالنصوص الشرعية** والانفتاح على **الواقع العملي**، مما جعله مذهبًا وسطًا بين أهل الحديث وأهل الرأي. أما أبرز هذه الأسس:

١ . الاعتماد على الكتاب والسنة

- يُقدّم الإمام مالك **القرآن الكريم** و**السنة النبوية** كمصدرين أساسيين للتشريع.
- يُوسّع مفهوم السنة ليشمل **عمل أهل المدينة**، باعتباره سنة عملية متوارثة عن الصحابة والتابعين.

٢ . عمل أهل المدينة

- يُعد من أبرز ما انفرد به المذهب المالكي.
- يرى الإمام مالك أن ما جرى عليه العمل في المدينة يُمثل سنة عملية، يُقدَّمه أحيانًا على خبر الآحاد.

٣ . المصلحة المرسلة

- يعتمد الإمام مالك على **المصالح العامة** التي لم يرد فيها نص صريح، بشرط ألا تُعارض نصًا شرعيًا.
- تُستخدم لتلبية حاجات الناس وتحقيق مقاصد الشريعة.

٤ . سد الذرائع

- يُعتبر من أهم أدوات الفقه المالكي، ويُستخدم لمنع الوسائل التي قد تؤدي إلى محظورات شرعية. مثال ذلك: منع بيع السلاح وقت الفتنة.

٥. القياس

- يُستخدم القياس كأداة اجتهادية، لكن يُقدَّم عليه عمل أهل المدينة والمصلحة عند التعارض.

٦. الاستحسان

- يُقبل الاستحسان إذا كان أرفق بالناس، ويُستخدم لتجاوز القياس الظاهري في بعض الحالات.

٧. الاستصحاب

- يُفترض بقاء الحكم السابق حتى يرد دليل يغيّره، ويُستخدم في غياب النصوص.

٨. قول الصحابي

- يُقدّر الإمام مالك أقوال الصحابة، خاصة إذا لم يُعرف لهم مخالف.

٩. شرع من قبلنا

- يُعتبر شرع الأمم السابقة شرعًا لنا ما لم يرد ناسخ، ويُستخدم في بعض الأحكام.

١٠. مراعاة الخلاف

- يُراعي الإمام مالك أقوال المذاهب الأخرى في بعض الحالات، خاصة بعد وقوع الفعل المختلف فيه، لتصحيح العقود أو الأحكام.

مميزات المنهج المالكي

- يجمع بين **النقل والعقل**، ويُوازن بين **التمسك بالأثر** والانفتاح على **الواقع العملي**.
- يُراعي **البيئة الاجتماعية** والظروف المحلية، مما جعله مذهبًا حيًّا قابلاً للتطبيق في مختلف العصور.
- يُستخدم على نطاق واسع في القضاء والإفتاء، خاصة في شمال إفريقيا والأندلس سابقًا.

الأسس الفكرية للمذهب الشافعي

أسسه الإمام محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ هـ – ٢٠٤ هـ)، يُعد من أكثر المذاهب انضباطًا في منهجيته، وقد وضع الإمام الشافعي أول بناء علمي لأصول الفقه في كتابه الشهير "**الرسالة**". أما أبرز الأسس الفكرية التي يقوم عليها هذا المذهب:

١. الاعتماد على النص الشرعي

- يُقدّم الإمام الشافعي **القرآن الكريم والسنة النبوية** على أي مصدر آخر.
- يرى أن السنة تُبيّن وتُفصّل ما أجمله القرآن، ويعتبرها في المرتبة نفسها من حيث الحجية إذا ثبتت صحتها.

٢. التمييز بين أنواع الحديث

- يُفرّق بين **الحديث المتواتر** و**خبر الآحاد**، ويقبل خبر الآحاد في الأحكام إذا توفرت فيه شروط الصحة.
- يُشدد على **الضبط في الرواية**، ويُقدّر علم الحديث وأهله، وكان يقول: "إذا صح الحديث فهو مذهبي".

٣. الإجماع

- يُعدُّ الإجماع مصدراً ثالثًا بعد الكتاب والسنة، بشرط أن يكون إجماعًا حقيقيًا بين العلماء المجتهدين.
- لا يقبل الإجماع العام لعامة الناس، بل يشترط أن يكون من أهل العلم والاختصاص.

٤. القياس المنضبط

- يستخدم القياس باعتدال، ويُعدُّه من أدوات الاجتهاد المهمة.
- يرى أن القياس لا يُستخدم إلا عند غياب النص، ويجب أن يكون مبنيًا على علة منضبطة ومناسبة.

٥. قول الصحابي

- يُقدّر قول الصحابي إذا لم يُعرف له مخالف، لكنه لا يجعله حجة ملزمة إذا وُجد خلاف بين الصحابة.
- يُرجّح بين أقوالهم بناءً على قربها من النصوص الشرعية.

٦. الترتيب المنهجي للأدلة

- رتب الإمام الشافعي الأدلة على النحو التالي: القرآن، فالسنة، فالإجماع، فقول الصحابي (عند عدم وجود نص)، فالقياس.

٧. التأسيس لعلم أصول الفقه

- يُعتبر الإمام الشافعي أول من وضع قواعد علم أصول الفقه بشكل منهجي، مما جعله حجر الأساس في ضبط الاجتهاد الفقهي.

مميزات المنهج الشافعي

- يجمع بين **فقه أهل الحديث** (الاعتماد على الرواية) و**فقه أهل الرأي** (الاجتهاد العقلي المنضبط).
- يُولي أهمية كبيرة **للانضباط المنهجي**، مما جعله مرجعًا في التدريس والبحث الفقهي.
- يُراعي **مقاصد الشريعة** دون أن يُفرّط في النصوص.

الأسس الفكرية للمذهب الحنبلي

أسسه الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ هـ – ٢٤١ هـ)، يُعد من أكثر المذاهب الفقهية تمسكًا بالنصوص الشرعية، ويتميز بمنهج صارم في الاجتهاد قائم على **الاتباع لا الابتداع**. إليك أبرز الأسس الفكرية التي يقوم عليها هذا المذهب:

١. التمسك بالنصوص الشرعية

- يُقدّم الإمام أحمد **القرآن الكريم** و**السنة النبوية** على أي مصدر آخر، ويُفضّل العمل بالنص حتى لو خالف القياس أو الرأي.

- يُعرف عنه قوله: "لا تقلدوني ولا تقلدوا مالكًا ولا الشافعي ولا الأوزاعي، وخذوا من حيث أخذوا".

٢. الاعتماد على الحديث النبوي

- يُولي الإمام أحمد أهمية قصوى للحديث، ويُقدّم **خبر الآحاد الصحيح** على القياس والرأي.
- يُجيز العمل بالحديث **الضعيف غير الموضوع** في فضائل الأعمال وبعض الأحكام إذا لم يوجد غيره.

٣. أقوال الصحابة

- تُعتبر أقوال الصحابة مصدراً مهمًا، ويُقدّمها الإمام أحمد على القياس إذا لم يُعرف لها مخالف.
- إذا اختلف الصحابة، يُختار القول الأقرب إلى النص الشرعي.

٤. القياس

- يُستخدم القياس عند الضرورة فقط، ويُشترط أن يكون **سليمًا ومنضبطًا**، ولا يُقدَّم على النص أو قول الصحابي.

٥. الاستصحاب

- يُستخدم كأصل في غياب الدليل، ويعني بقاء الحكم السابق حتى يرد ما يغيّره.

٦. الإجماع

- يقبل الإجماع إذا ثبت، لكنه يُشترط أن يكون **إجماعًا صريحًا** من العلماء المجتهدين، لا مجرد شيوع رأي.

٧. سد الذرائع

- يُستخدم لمنع الوسائل التي تؤدي إلى الحرام، ويُطبّق بحذر في المعاملات والأخلاق.

٨. المصالح المرسلة والعرف

- يُؤخذ بها إذا لم تُعارض نصًا شرعيًا، لكنها ليست من الأصول الأساسية، بل تُستخدم تكميليًا.

مميزات المنهج الحنبلي

- يمثل **فقه النصوص** بامتياز، ويُعلي من شأن **السنة النبوية** في التشريع.
- يُعرف بالاحتياط في الفتوى، والحرص على **سلامة الدين** قبل التيسير.
- يُعد مرجعًا مهمًا في قضايا **العقيدة والسلوك**، خاصة في المدرسة السلفية.

مقارنة بين الأسس الفكرية للمذاهب الأربعة

تكشف المقارنة بين الأسس الفكرية للمذاهب الأربعة عن تنوع منهجي ثري في الفقه الإسلامي، وتساعد على فهم كيف تعامل كل مذهب مع النصوص الشرعية والواقع العملي:

الأساس الفقهي	الحنفي	المالكي	الشافعي	الحنبلي
الاعتماد على الرأي والعقل	قوي جدًا (مذهب أهل الرأي)	متوسط (يُراعي عمل أهل المدينة)	محدود (يميل للنص أكثر)	ضعيف (يعتمد على النصوص المباشرة)

القياس	أساسي وموسع	يُستخدم باعتدال	يُستخدم بدقة	يُستخدم عند الضرورة فقط
الاستحسان	معتمد ومميز للمذهب	غير معتمد	غير معتمد	غير معتمد
العرف والعادة	يُعتبر مصدرًا مهمًا	يُراعى عمل أهل المدينة كعرف	يُؤخذ به إذا لم يخالف النص	يُؤخذ به بحذر
المرونة في الفتوى	عالية جدًا	متوسطة	متوسطة	محدودة
الاعتماد على الحديث	يُشترط صحة السند ويُقدَّم الرأي أحيانًا	يُقدَّم عمل أهل المدينة على الحديث الفردي	يُقدَّم الحديث الصحيح دائمًا	يُقدَّم الحديث الصحيح على أي اجتهاد
الترتيب المنهجي للفقه	أول من رتّب أبواب الفقه	أقل ترتيبًا	منظّم جدًا (بفضل "الرسالة")	يعتمد على الرواية أكثر من الترتيب
الاجتهاد والتوسع	واسع جدًا	معتدل	دقيق ومنضبط	ضيق ومتحفظ

ملاحظات منهجية

- **الحنفي**: يتميز بالمرونة والاجتهاد العقلي، مما جعله مناسبًا للتطبيق القضائي والإداري.
- **المالكي**: يوازن بين النص والعرف، ويُعلي من شأن عمل أهل المدينة كمصدر تشريعي.
- **الشافعي**: يُعتبر مؤسس علم أصول الفقه، ويُعطي الأولوية للنصوص مع ضبط أدوات الاجتهاد.
- **الحنبلي**: أكثر المذاهب تمسكًا بالنصوص، ويُقلل من استخدام الرأي والقياس إلا عند الضرورة.

المذهب الحنبلي	توسع في المصادر فتوسعت الأصول عنده
استوعب الأحاديث والروايات والآثار في جميع الأبواب الفقهية فجعلوا كل ما يثبت بدليل من نص أو قول صحابي أصلا قائما بذاته. فابتعدوا عن التمييز بين الأصول والاستثناءات. لذلك جعلوا المزارعة والمساقاة أصلا يقاس عليه كل عقد مشاركة ينمي المال، ويقاس عليه بالمضاربة بالعروض (رأس المال العيني). فاستوعب المذهب كثيرا من المعاملات كبيع العربون والبيع بسعر السوق واتسعت المشاركات في المنافع والخدمات واتسعت حرية الشروط التي يشترطها أطراف العقد.	
المذهب المالكي	جمع بين النص وأطلق العقل في الاستنباط واعتبر العرف بين الناس
جمع بين النص والنظر في المعاني. فالنظر للمصالح والمقاصد من جهة وسد الذرائع من جهة أخرى فأغلق باب الربا بسد الذرائع وأغلق الحيل الربوية وأيضًا غلّب المصالح والمقاصد في مسائل الغرر والجهالة.	
المذهب الشافعي	غلّب النص وأطلق العقل في الاستنباط لم يعتبر عرف الناس إلا في مجالات ضيقة
جمع بين التأصيل والتقعيد كالحنفي مع تغليب للنص الشرعي. ما ثبت بالنص موافقا للقواعد العامة حعلوه أصل يقاس عليه كالبيع والإجارة. ما ثبت بالنص مخالفا للقواعد العامة حعلوه استثناءا لا يقاس عليه كعقد المضاربة الذي قصروه على أعمال التجارة. ولم يراع عرف الناس إلا في مجالات ضيقة فكان أفضل المذاهب نظريا وأصعبها تطبيقا. فحصروا الشركة في خلط الأموال كشركة العنان ولم يجيزوا التي قامت على العمل أو جمعت المال مع العمل لاعتبار الإجارة أنسب لضبط الأعمال. فجعلوا الإجارة على خلاف القواعد العامة. وقد خالف العديد من علماء المذهب القول المعتمد في كثير من المسائل التي يشق تطبيقها أو تقتضيه المصلحة العامة كبيع المعاطاة وبيع الاستجرار والمزارعة.	
المذهب الحنفي	توسع في الاستنباط العقلي من معاني النصوص واعتبر العرف بين الناس

النظر في علل ومعاني النصوص.

فضبط فقه المعاملات بقواعد أصول البناء واستثنى منها:

- ما ثبت بنص كعقد السلم ولا يقاس على غيره.
- ما تعارف عليه الناس كعقد الاستصناع الذي يخالف شروط البيع لأنه معدوم وقت العقد ويخالف بيع السلم من حيث تأجيل الثمن.
- فسح المجال لتصحيح المعاملات بالتفرقة بين البيع الفاسد والبيع الباطل.

المبحث العاشر
منهجية التدرج الفقهي

الفتيا والاستفتاء

جاء في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور في قوله تعالى: **فَاسْتَفْتِهِمْ**. أن ضمير الغيبة في قوله: **فَاسْتَفْتِهِمْ**، عائد إلى غير مذكور للعلم به من دلالة المقام وهم الذين أحالوا إعادة الخلق بعد الممات. وكذلك ضمائر الغيبة الآتية بعده وضمير الخطاب منه موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أي فسَلْهم، وهو سؤال محاجة وتغليط.

والاستفتاء: طلب الفَتوى بفتح الفاء والواو، ويقال: الفُتْيَا بضم الفاء وبالياء: وهي إخبار عن أمر يخفَى عن غير الخواصّ في غرض مَّا. وهي:

١- إمّا إخبار عن علم مختص به المخبِر قال تعالى: **يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ** (يوسف: ٤٦)، وقال: **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ** (النساء: ١٧٦)، وتقدم في قوله: **الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** (يوسف: ٤١).

٢- وإمَّا إخبار عن رأي يُطلب من ذي رأي موثوق به ومنه قوله تعالى: **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي** (النمل: ٣٢). والمعنى: فاسألهم عن رأيهم فلما كان المسؤول عنه أمرًا محتاجًا إلى إعمال نظر أطلق على الاستفهام عنه فعل الاستفتاء.

أثر تغير الظروف في الفتيا

حث رسول الله صلى الله عليه وسلم المضّحين بتوزيع لحوم أضاحيهم ليستفيد منها المحتاجون، ولا بأس بادخار ما فضل منها في البيوت لتكون عوناً لما يليها من أيام.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**مَن ضَحَّى مِنكُم فلا يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثالِثَةٍ وبَقِيَ في بَيْتِه منه شيءٌ فَلَمَّا كانَ العامُ المُقْبِلُ، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، نَفْعَلُ كما فَعَلْنا عامَ الماضِي؟ قالَ: كُلُوا وأَطْعِمُوا وادَّخِرُوا، فإنَّ ذلكَ العامَ كانَ بالنَّاسِ جَهْدٌ، فأرَدْتُ أنْ تُعِينُوا فيها**)[1].

وكأن الادخار منهي عنه عند حاجة الناس، فالأصل الإعانة، وهو مندوب مع السَعَة، لأنه وسيلة مفيدة في جدولة الموارد، وقد فعلها يوسف عليه السلام في خطته السبعية المقترحة. وهذا مشابه لما ذهبنا إليه في المال المكتنز كما سيرد بعد قليل.

مراعاة حال المستفتي

كنَّا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فجاء شابٌّ فقال أُقَبِّلُ يا رسولَ اللهِ وأنا صائمٌ؟ قال: لا، قال: فجاء شيخٌ فقال: أُقَبِّلُ وأنا صائمٌ؟ قال: نعم. قال: فنظرَ بعضُنا إلى بعضٍ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (**قدْ عَلِمْتُ لِمَ نظرَ بعضُكم إلى بعضٍ إنَّ الشيخَ يَمْلِكُ نفْسَهُ**)[2].

---

[1] صحيح البخاري

[2] خلاصة حكم المحدث: فيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه كلام. رواه عبدالله بن عمر في مجمع الزوائد. وأخرجه أحمد (٦٧٣٩)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٤/ ١٠٤) (١٤٧٢١)، والخطيب في ((الفقيه والمتفقه))، واللفظ لهم.

مراعاة الحالة العامة للأسواق: المال المكتنز مثالا

الكنز مكروه، فهل تجزؤه زكاته؟

قال العديد من الفقهاء بأن زكاة المال المكتنز تخرجه من الكراهة.

وبرأينا[1] أنه إذا كانت الأسواق في ضيق وعسرة وقلة سيولة فإن حجبه عنها يوقعه في الكراهة، فالمال لم يوجد بين أيدي الناس لاكتناز بل ليكون في السوق عاملاً منتجًا، وفي هذا قوة للأمة جمعاء.

جاء في تفسير القرطبي للآية: **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** (التوبة: ٣٤):

قيل: الكنز ما فضل عن الحاجة. روي عن أبي ذر، وهو مما نقل من مذهبه، وهو من شدائده ومما انفرد به رضي الله عنه. ويحتمل أن يكون مجمل ما روي عن أبي ذر في هذا، ما روي أن الآية نزلت **في وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين وقصر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم، ولم يكن في بيت المال ما يسعهم، وكانت السنون الجوائح هاجمة عليهم، فنُهوا عن إمساك شيء من المال إلا على قدر الحاجة، ولا يجوز ادخار الذهب والفضة في مثل ذلك الوقت.**

كما أرسل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، كتابا لأمرائه لمنع أي تعطيل لثروة الأمة، قال فيه[2]: انظر ما قِبَلكم من أرض الصافية فأعطوها بالمزارعة بالنصف وما لم

[1] للمؤلف، الفتاوى المالية، الجزء الثالث، كاي للنشر.
[2] القرشي، كتاب الخراج.

تزرع فأعطوها بالثلث فإن لم تزرع فأعطوها حتى تبلغ العشر فإن لم يزرعها أحد فامنحها فإن لم تُزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين ولا تبتزن قِبلك أرضا.

وفي هذا دلالة على أن موارد الأمة يجب عدم تعطيلها لعدم إضعاف هذه الأمة المباركة، وعلى صاحب المال أن يبحث عن فرص لتشغيل ماله، ففي الصيغ الإسلامية ما هو مناسب للمستثمر المسالم ومنها ما هو مناسب للمستثمر المغامر.

مراعاة أحوال الناس وطبائعهم: التدرج في تحريم الربا[1]

يُستحسن تدبر الأدوار التي مرّ بها تحريم الربا؛ لندركَ سِر التشريع الإسلامي في معالجته للأمراض الاجتماعية، فمن المعلوم أن التشريع الإسلامي سار بسنة التدرج في تقرير الأحكام.

وقد مرَّ تحريم الربا بأربعة أدوار، كما حدث في تحريم الخمر، وذلك تمشيًا مع قاعدة التدرج:

- **الدور الأول**: نزل قوله تعالى: **وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** (الروم: ٣٩) وهذه الآية الكريمة نزلت في مكةَ، وهي – كما يظهر – ليس فيها ما يُشير إلى تحريم الربا، وإنما فيها إشارة إلى بُغض الله للربا، وأن الربا ليس له ثواب عند الله.

[1] ص ٢٩٦ - كتاب التفسير الموضوعي جامعة المدينة - تعريف الربا وبيان الأدوار التي مر بها تحريمه ومشروعية التحريم - المكتبة الشاملة، رابط.

- **الدور الثاني**: نزل قوله تعالى: **فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** (النساء: ١٦٠، ١٦١)، وهذه الآية مدنية، وهي درس قصّه الله سبحانه وتعالى علينا من سيرة اليهود، الذين حرّم الله عليهم الربا فأكلوه، واستحقوا عليه اللعنة والغضب، وهو تحريم بالتلويح لا بالتصريح؛ لأنه حكاية عن جرائم اليهود، وليس فيه ما يدل دلالة قطعية على أن الربا محرّم على المسلمين، وهذا نظير الدور الثاني في تحريم الخمر من قوله تعالى: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** (البقرة: ٢١٩) حيث كان التحريم فيه بالتلويح لا بالتصريح.
- **الدور الثالث**: نزل قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً** (آل عمران: ١٣٠) هذه الآية مدنية، وفيها تحريم للربا صريح، لكنه تحريم جزئي لا كلي؛ لأنه تحريم لنوع من الربا الذي يستحق الربا الفاحش، وهو الربا الذي بلغ في الشناعة والقبح الذروة العليا، وبلغ في الإجرام النهاية العظمى؛ حيث كان الدَّيْن فيه يتزايد حتى يصبح أضعافًا مضاعفة، يضعف عن سداده كاهل المستدين، الذي استدان لحاجته وضرورته، وهو يشبه تحريم الخمر في المرحلة الثالثة؛ حيث كان التحريم جزئيًّا لا كليًّا في أوقات الصلاة،

قال تعالى: **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** (النساء: ٤٣).

- **الدور الرابع**: وفي هذا الدور الأخير نزل التحريم الكلي القاطع، الذي لا يفرّق فيه القرآن بين قليل أو كثير، والذي تدل النصوص الكريمةُ على أنه قد كُتِمَ فيه التشريع السماوي بالنسبة إلى حكم الربا، فقد نزَلَ قوله تعالى: **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** (البقرة: ٢٧٨ – ٢٨٠).

وهذه الآيات الكريمة التي كانت المرحلة النهائية في تحريم الربا، تشبه المرحلة النهائية في تحريم الخمر في المرحلة الرابعة منه؛ حيث حرّمت الخمر تحريمًا قاطعًا جازمًا في قوله تعالى: **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (المائدة: ٩٠).

وبهذا البيانِ يتضح لنا سر التشريع الإسلامي في معالجة الأمراض الاجتماعية التي كان عليها العرب في الجاهلية، بالسير بهم في طريق التدرج.

الفصل الثالث: العلم

يشمل علم الله تعالى كل شيء، وما أوتي الإنسان من العلم إلا ما شاء الله أن يعطيه إياه، يقول تعالى: **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** (البقرة: ٥٥).

وقد طلب الله من نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومن المسلمين أن يستزيدوا من طلب العلم من الله تعالى بوصفه العاطي، يقول تعالى: **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** (طه: ١١٤)، لأنه تعالى لم يعط خلقه من العلم إلا القليل الذي أذن به، يقول تعالى: **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** (الإسراء: ٨٥).

ومن آتاه الله الحكمة من العلم فقد أوتي خيراً كثيراً، يقول تعالى: **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** (البقرة: ٢٦٩).

المبحث الأول

العلم يُثبت زيادة درجة الاحتمال

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (النساء: ١٥٧)، أي ما قتلوه حقًا.

وهذه آية جامعة لأكثرَ من عبارةٍ من عبارات الاحتمال، حدد الله تعالى فيها مصيرِ عيسى عليه السلام؛ فاليهودُ والنصارى يدّعونَ قتْله وصلْبه، وهذا نفاه اللهُ تعالى تمامًا، فهم (ما قتلُوه وما صلُبوه)؛ لكن أشكل عليهم الأمرُ وتشابَه عليهم. والمختلفون في ذلك؛ في شكٍّ مردُّه الوهَمُ وعدمُ العِلم، فالذي اتَّبعُوه ظنًا أورث الشك عندهم، أما اليقين في الخبر، فإنهم لم يقتلوه أبدًا، لأن الله رفعه إليه.

إنَّ نقصَ العلم قد جعل أولئك المدَّعين يقعون بالوهَم، والعِلمُ الذي ينبئنا به الله تعالى في كتابهِ على لسان عيسى عليه السلام بأنه سيُبعثُ حيًّا، قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (مريم: ٣٣-٣٤)، وقد أيّد ذلك أحاديثُ نبويةٌ متواترة عديدة.

المبحث الثاني
العلم الحق درجات

ذكر القرآن الكريم عبارة: (**حَقًّا عَلَيْنَا**)، مرتين.

مرة في سورة يونس، قال تعالى: **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ** (يونس: ١٠٣).

ومرة في سورة الروم، قال تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** (الروم: ٤٧).

وكلمة (**حَقًّا**) تفيد بالحقيقة المؤكدة، ثم إلحاقها بكلمة (**عَلَيْنَا**)، نسبة للذات الإلهية، تجعلها وعداً واجبًا لابد منه، فالله لا يخلف وعده.

وردت الأولى في سورة يونس والوعد فيها من الله بأنه يُنجي المؤمنين، وسورة يونس أنجى الله فيها رسوله يونس. وذكر القرطبي: أي من سنتنا إذا أنزلنا بقوم عذابًا أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين.

ووردت الثانية في سورة الروم والوعد فيها من الله بأنه ينصر المؤمنين، وسورة الروم فيها ذكر الله تعالى نصره للروم أصحاب الكتاب على الفرس المشركين ثم نصره للمسلمين المؤمنين على الروم.

وذكر القرطبي: كان أبو بكر يقف على (**حَقًّا**)؛ أي وكان عقابنا حقًا، ثم يقول: علينا نصر المؤمنين ابتداءً وخبرًا؛ أي أخبر بأنه لا يخلف الميعاد.

المبحث الثالث

علم الله وعلم غيره

علمُ الله تعالى لا حصر له، ولا يحيط به أحد لسعته، ولا يغيب عنه شيء مطلقًا صغيراً كان أم كبيراً في باطن الأرض أو في السماء. قال الله تعالى: **إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** (طه: ٩٨)، وذكر ابن كثير: أنه تعالى عالمٌ بكل شيء. أكدت ذلك آيات عديدة وردت بهذا الخصوص، كقوله تعالى:

- **قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** (الطلاق: ١٢).
- **وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** (الجن: ٢٨).
- **وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (سبأ: ٣).
- **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (الأنعام: ٥٩).
- **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (هود: ٦).

والآيات في هذا كثيرة جداً.

وعن قوله تعالى: **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** (البقرة: ٢٥٥)

ذكر القرطبي: والعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علمه سبحانه بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، وما يعرفونه من شؤونهم الدنيوية وما لا يعرفونه. وقوله تعالى في الجملة السابقة: **وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ**، معطوف على قوله: **يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ**، لأنه مكمل لمعناه. والمراد بالعلم المعلوم. والإحاطة بالشيء معناها العلم الكامل به. أي: لا يعلمون شيئًا من معلوماته سبحانه إلا بالقدر الذي أراد أن يُعلمهم إياه على ألسنة رسله. فهو كقوله تعالى: **عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً* إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ**. فالجملة الكريمة بيان لكمال علم الله تعالى، ولنقصان علم سواه، إذ أن البشر لم يعطوا من العلم إلا القليل، وهذا القليل ناقص لأنه ليس على إحاطة واستغراق لكل ما تشتمل عليه جزئيات الشيء ووجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده، إذ العلم الكامل بالشيء لا يكون إلا لله رب العالمين.

أما غيره سبحانه، فلا يحيطون بعلم الله، بل هو من يعلم كل شيء عنهم، ولذلك أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم – وهو أكمل الخلق – بأن يطلب من الله أن يزيده في العلم، فكيف بمن من دونه؟

وعن قوله تعالى: **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** (طه: ١١٠)

ذكر الطنطاوي: الله تعالى وحده هو الذي يعلم جميع أحوال خلقه سواء ما كان منها يتعلق بما بين أيديهم من أمور الآخرة وأهوال الموقف، أم ما كان منها يتعلق بما خلفهم من أمور الدنيا. أما هم فإنهم لا يحيط علمهم لا بذاته تعالى ولا بصفاته، ولا بمعلوماته. فالضمير في قوله: **مابَيْنَأَيْدِيهِمْوَماخَلْفَهُمْ**، يعود على المتبعين للداعي وهم الخلق جميعًا.

ذكر ابن عاشور: وجملة: **ولاَيُحِيطُونَبهِعِلْماً**، تذييل للتعليم بعظمة علم الله تعالى وضآلة علم البشر، نظير ما وقع في آية الكرسي.

وعن قوله تعالى: **وَقُلرَّبِّزِدْنِيعِلْمًا** (طه: ١١٤)

ذكر الطنطاوي: ثم أمر سبحانه نبيه صلّى الله عليه وسلّم: أن يسأله المزيد من العلم فقال: **وَقُلْرَبِّزِدْنِيعِلْماً**. أي: وقل أيها الرسول الكريم مخاطبًا ربك ومتوسلاً إليه، يا رب زدني من علمك النافع.

قال الآلوسي: واستدلوا بالآية على فضل العلم حيث أُمر صلّى الله عليه وسلّم بطلب الزيادة منه، وذكر بعضهم أنه صلّى الله عليه وسلّم ما أُمر بطلب الزيادة من شيء سوى العلم. وكان صلّى الله عليه وسلّم يقول: **(اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما)** وكان يقول: **(اللهم زدني إيمانًا وفقهًا ويقينًا وعلمًا)**. ثم ساق سبحانه جانبا من قصة آدم عليه السلام فذكر لنا كيف أنه نسي عهد ربه له، فأكل من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الأكل منها، ومع ذلك فقد قبل سبحانه توبته، وغسل حوبته.

وعن قوله تعالى: وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (طه: ١١٥)

ذكر الطنطاوي: قال الجمل: وقوله: نَجِدْ يحتمل أنه من الوجدان بمعنى العلم.

ذكر القرطبي: وعن ابن عباس أيضا وعطية العوفي: حفظا لما أمر به؛ أي لم يتحفظ مما نهيته حتى نسي وذهب عن علم ذلك بترك الاستدلال؛ وذلك أن إبليس قال له: إن أكلتها خلدت في الجنة يعني عين تلك الشجرة، فلم يطعه فدعاه إلى نظير تلك الشجرة مما دخل في عموم النهي وكان يجب أن يستدل عليه فلم يفعل، وظن أنها لم تدخل في النهي فأكلها تأويلا، ولا يكون ناسيًا للشيء من يعلم أنه معصية.

الفارق بين لا يشعرون ولا يعلمون

لا يشعرون:

قال تعالى: أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)

ذكر القرطبي: (وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ)، قال ابن كيسان يُقال: ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم، إنما يُذمُّ إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم، قال: ففيه جوابان:

أحدهما: أنهم كانوا يعملون الفساد سرًا ويظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبي صلى الله عليه وسلم.

والوجه الآخر: أن يكون فسادهم عندهم صلاحًا وهم لا يشعرون أن ذلك فساد، وقد عصوا الله ورسوله في تركهم تبيين الحق واتباعه.

قال تعالى في سورة يوسف: فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (يوسف: ١٥).

ذكر البغوي: وهم لا يشعرون بوحي الله وإعلامه إياه ذلك، قاله مجاهد.

لا يعلمون:

قال تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ(١٣)

ذكر القرطبي: قوله تعالى: (وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ) مثيلاً لقوله: لكن لا يشعرون، وقد تقدم. والعلم معرفة المعلوم على ما هو به، تقول: علمت الشيء أعلمه علمًا عرفته، وعالمت الرجل فعلمته أعلمه (بالضم في المستقبل). غلبته بالعلم.

ذكر الطبري: عَينُ السَّفه؛ أن السفيه إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلحُ، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يَعصي رَبَّه من حيث يرى أنه يطيعُه، ويكفرُ به من حيث يرى أنه يُؤمن به، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها.

لذلك: يُفسد الإنسان لقلة علمه أو لفساده، أما الإيمان فيحتاج علمًا حقيقيًا.

الفارق بين يعلمون ويفقهون

يقول الله تعالى في سورة الأنعام: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (الأنعام: ٩٥-٩٦)

ذكر ابن كثير: وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خَلْقَ الليل والنهار والشمس والقمر، ختم الكلام بالعزة والعلم، كما ذكر في هذه الآية.

ذكر ابن عاشور: وضع الأشياء على قدْر معلوم، والعزيز: أي الغالب، القاهر، والله هو العزيز حقّاً لأنّه لا تتعاصى عن قدرته الكائنات كلّها. والعليم مبالغة في العلم، لأنّ وضع الأشياء على النّظام البديع لا يصدر إلاّ عن عالم عظيم العلم.

تتابع آيات السورة بقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأنعام: ٩٧-٩٨-٩٩)

وفي تفسير الآية ٩٨:

ذكر الطنطاوي: قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم قيل (يعلمون) مع ذكر النجوم ويَفْقَهُونَ مع ذكر إنشاء بني آدم؟ قلت: كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنته وتدقيق نظره مطابقًا له.

وقد علق صاحب الانتصاف على كلام الزمخشري بما ملخصه: جواب الزمخشري صناعي، والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين في اللفظ، لما في ذلك من التكرار فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسينا للنظم واتساقا في البلاغة، ويحتمل وجها آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله ولا يعتبر بمخلوقاته وكانت الآية الأولى خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها، إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الإلهية في تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر، ولا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة، وتقلباتهم في أطوار مختلفة فإنه نظر لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها، فإذا تمهد ذلك فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك، فلما كان **الفقه أدنى درجات العلم** إذ هو عبارة عن الفهم، نفى من أشبع القبيلين جهلاً، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم، ونفي الأدنى أبشع من نفي الأعلى درجة، فخص به أسوأ الفريقين حالا. **وإذا قيل: فلان (لا يفقه شيئًا) كان أذم في العرف من قولك: فلان لا يعلم شيئًا، وكأن معنى**

قولك لا يفقه شيئًا؛ ليست له أهلية الفهم وإن فهم، وأما قولك: (لا يعلم شيئًا) فغايته نفي حصول العلم له، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم.

ذكر ابن عاشور: وعدل عن (يعلمون) إلى (يفقهون) لأنّ دلالة إنشائهم على هذه الأطوار من الاستقرار والاستيداع وما فيهما من الحكمة دلالة دقيقة تحتاج إلى تدبّر، فإنّ المخاطبين كانوا مُعرضِين عنها فعبّر عن علمها بأنّه فِقه، بخلاف دلالة النّجوم على حكمة الاهتداء بها فهي دلالة متكرّرة، وتعريضًا بأنّ المشركين لا يعلمون ولا يفقهون، فإنّ **العلم هو المعرفة الموافقة للحقيقة، والفقه هو إدراك الأشياء الدّقيقة.** فحصل تفصيل الآيات للمؤمنين وانتفى الانتفاع به للمشركين، ولذلك قال بعدَ هذا (**إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**).

ذكر الشعراوي: يقول الحق: **قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ** (الأنعام: ٩٨) والتفصيل يعني أنه جاء بالآيات مرة مفصلة ومرة مجملة؛ لأن الأفهام مختلفة، وظروف الاستقبال للمعاني مختلفة، فتفصيل الآيات أريد به أن يصادف كل تفصيل حالة من حالات النفس البشرية؛ لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً في ألا يفقه، ولم يترك لأحد مجالاً في ألا يتعلم، ونلحظ أن تذييل الآيتين المتتابعتين مختلف؛ فهناك يقول سبحانه: **قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (الأنعام: ٩٧). وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: **قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ** (الأنعام: ٩٨). و «الفقه» هو أن تفهم، أي أن يكون عندك مَلَكَة فهم تفهم بها ما يقال لك علْماً، فالفهم أول مرحلة والعلم مرحلة تالية.

وأراد الحق بالتفصيل الأول في قوله: **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**، الدعوة للنظر في آيات خارجة عن ذات الإنسان، وهنا أي في قوله سبحانه: **لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**، لفتٌ للنظر والتدبر في آيات داخلة في ذات الإنسان. لذلك كان الأمر (انظروا)، **انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ**.

الملاحظة	الفهم	الفقه	العلم

لقد دعا الله الناس للتوجه نحو العلم بأسلوب منهجي لمن أراد التعلم. فطلب منهم في آيات عديدة النظر في الكون وفي أنفسهم وفي محيطهم، والنظر هو محل الملاحظة وبتراكم الملاحظات تزداد البيانات التي إن تابعها التفسير أدت إلى الفهم، وبازدياد فهم دقائق الأشياء، يكون فقهًا، ثم يكون الفقه علمًا ما دام الفقيه يدعم ما وصل إلى من فهم دقيق بالحقائق المستقرة.

ذكر أبو السعود: بخلاف الاستيداع: **قَدْ فَصَّلْنَا**، الآيات المبينةَ لتفاصيل خلقِ البشرِ من هذه الآية ونظائرِها: **لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**، غوامضَ الدقائقِ باستعمال الفِطنة وتدقيقِ النظر في لطائف صنع الله عزَّ وجلَّ في أطوار تخليقِ بني آدمَ مما تحارُ في فهمه الألبابُ وهو السرُّ في إيثارِ يفقهون على يعلمون كما ورد في شأن النجوم.

ذكر الشعراوي: ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله: **إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (الأنعام: ٩٩)

أي يؤمنون بأن الإله الذي آمنوا به يستحق بصفات الجلال والجمال فيه أن يُؤْمَن به، وكلما رأى الإنسان خلقا جميلاً قال: الله، إذن أنا إيماني صحيح والآيات تؤكد صدق إيماني بالإله الذي خلق كل هذا، وكل يوم تبدو لي حاجة عجيبة تزيدني إيماناً، وعقلي الذي وهبه الله لي هداني إلى الإيمان بهذا الإله.

ومن العجيب أن هناك من جعلوا لله شركاء!، إله له كل هذه الصفات من أول فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح، وجعل الليل ساكناً، والشمس، والقمر، حسباناً وبحسبان، والنجوم نهتدي بها في ظلمات البر والبحر، وأنزل لنا من السماء ماء، وأخرج لنا النبات منه خضر، كل هذه المسائل كان يجب أن تكون صارفة للناس إلى أن الله وحده هو الخالق المستحق للعبادة، ولا تتجه أبداً بالعبادة أو بالإيمان بغيره.

فقه القلوب

قال تعالى: **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (الأعراف: ١٧٩)

ذكر السعدي: **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا**، أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة.

ذكر الشعراوي: يعني أننا نشرنا وبثثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، وهم من يعرضون عن منهجنا، ثم يأتي بالحيثيات لذلك، وهي: **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ**. ولقائل أن يقول:

إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم؟

ومادامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم؟

وكذلك مادامت الآذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون؟

ونقول: لا، لم يخلقهم الله للعذاب، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم، وصارت عقولهم لا تفكر في شيء غيره وتخطط للحصول على الشهوة، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها، وكذلك الآذان. وكل منهم يرى غير مراد الرؤية، ويسمع غير مراد السمع.

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الآذان؛ أن فقه القلب هو فهم القضايا التي تنتهي إليها الإدراكات. ونعلم أن الإدراكات تأتي بوساطة الحواس... ولا تظنن أن الضلال لعدم وجود منهج، أو لعدم مُذَكِّر، أو لعدم وجود مُنْذِرٍ أو مُبَشِّر؛ بل هي غفلة منهم، فالأمور واضحة أمامهم، لكنهم يهملونها ويَغْفلون عنها.

وإن الفارق بين الآيات ٩٥-٩٩ من سورة الأنعام وبين الآية ١٧٩ من سورة الأعراف، أن **الملاحظة الآتية من الحواس انتهت في آيات الأنعام المذكورة إلى إدراك الإيمان بعدما اكتسبت الفقه ووصلت إلى العلم. بينما انتهت الحواس في آية الأعراف ١٧٩ إلى غفلة القلب مما أدى إلى ضياع الإيمان.**

المبحث الرابع
العلم واختلاف الناس بعد مجيئه

إن الحجج والآيات والبينات والأدلة والبراهين، هي أدلة موصلة للعلم بشقيه اليقيني والظني الراجح بمعنى غلبة الظن. وقد آتى الله تعالى رسله البيّنات للناس ليميّز الناس بها الحقائق.

ويوضح الشكل التالي أن الحجة والآية بدرجة واحدة يتلوها البيّنة والدليل ثم البرهان فالسلطان. وجميعها تؤدي إلى بيان العلم.

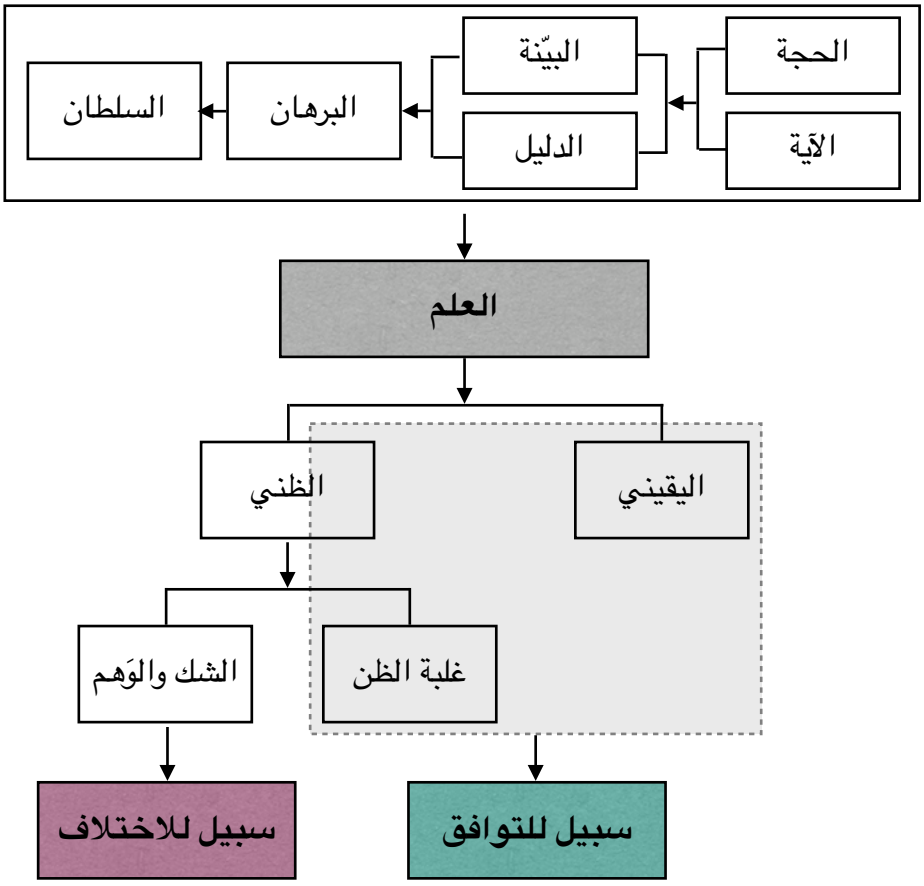

فإذا جاء العلم للناس، ثم اختلفوا، فيكون اختلافهم ليس عن جهل، وإنما عن علم وإصرار على الباطل. وهنا يقع الاقتتال بكل تأكيد.

وقد عرَّف ابن عاشور العلم بأنه:

> إدراك العقل جزمًا أو ظنًّا. فإن حصل مقصود العلم حقًا، فإنه مُوجب لارتفاع الخلاف. فإن أفضى لكونه سببًا لحصول الاختلاف، كان مقصوده طلب الرياسة والبغي.

ويرى ابن عاشور أن: مجيء العلم هو الوحي الذي جاءت به رسلهم وأنبياؤُهم، لأنّ كلمة جاء مؤذنة بعلم متلقّى من الله تعالى، يعني أنّ العلم الذي جاءهم كان من شأنه أن يصدّهم عن الاختلاف في المراد، إلاّ أنّهم أساؤوا فكانوا على خلاف مراد الله من إرسال الهدى.

وبدون العلم لا يكون الناس على يقين من أمرهم، بل يصيرون إلى تقليد الآباء والأسلاف، بلا دليل ولا برهان، فيصيرون إلى حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

وبدراسة الآيات ذات العلاقة، فقد ورد (جاءهم وجاءتهم)، ضمن عبارة: (من بعد ما جاء) بصورة مذكرة، وبصورة مؤنثة (من بعد ما جاءتهم)، خمس مرات:

- مرتان تلا المجيء (البينات).
- ومرتان تلا المجيء (العلم)، فكان العلم اليقيني بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم وهذا ما أُخبر به أهل الكتاب نعتًا وصفاتٍ ونبوة، أو علمهم بالحق أي بالدين الحق، الذي وصل إليهم عن طريق أنبيائهم.
- ومرة كان إتيانًا للبينات ومجيئًا للعلم،

الدلائل والحجج أوصلت إلى العلم، والعلم إن كان حقًا؛ كان وسيلة توافق وسعادة بين الناس، وإن كان غيًا؛ اقتتلوا وأزهقوا أرواحهم دون طائل.

لذلك ينقسم الناس إلى فريقين:

١. فريق كان العلم سبيلاً لهم للتوافق سواء أخذوا اليقين منه أو الظن الراجح المفضي لغلبة الظن، فارتفع الخلاف بينهم، لأن مقصودهم من العلم عبادة الله بالدين الحق الذي جاء يه أنبياؤه.

٢. فريق كان العلم سبيلاً لهم للتفرق لأنه كان سببًا لحصول الاختلاف، فانكشف مقصودهم منه، بطلب الرياسة والبغي، فاتخذوا الاقتتال سبيلاً لغيّهم ليتروسوا الناس.

وبقراءة كتاب المنقذ من الضلال للغزالي، نجد أن الغزالي قد تفرغ عشر سنوات لدراسة ما ذهبت إليه الفرق في عقيدتها في زمانه، حيث كلاً منهم يدعّي أن الحق عنده، وأن غيره على غير الحق، ثم فصّل في أخطاء كل فريق وأثبت غيّه.

إلا من بعد ما جاءتهم البينات:

١- قال تعالى: **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** (البقرة: ٢٥٣)

ذكر الطنطاوي: ولو شاء الله تعالى ألا يقتتل الذين جاؤوا بعد كل رسول من الرسل بعد أن جاؤوهم **بالبينات الدالة على الحق**، لفَعَل، ولكن الله تعالى لم يشأ ذلك،

لأنه خلق الناس مختلفين في تقبلهم للحق، فترتب على هذا الاختلاف أن آمن بالحق الذي جاءت به الرسل من فُتح له قلبه، واتجه إليه اختياره، وكفر به من آثر الضلالة على الهداية واستحب العمى على الهدى، فتقاتل الناس وتحاربوا.

ذكر الطبري: يعني تعالى ذكره بقوله: **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ**؛ آتينا عيسى ابن مريم **الحجج والأدلة** على نبوته: من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وما أشبه ذلك، مع الإنجيل الذي أنزلته إليه، فبيّنت فيه ما فرضت عليه.

٢- قال تعالى: **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (آل عمران: ١٠٥)

ذكر الطنطاوي: لقد كان تفرقهم هذا واختلافهم، **مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**، أي **الآيات والحجج والبراهين الدالة على الحق**، والداعية إلى الاتحاد والوئام لا إلى التفرق والاختلاف.

ذكر ابن عاشور: فيه إشارة إلى أنّ الاختلاف المذموم والَّذي يؤدّي إلى الافتراق، وهو الاختلاف في أصول الدّيانة الَّذي يفضي إلى تكفير بعض الأمَّة بعضًا، أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المبنيّة على اختلاف مصالح الأمَّة في الأقطار والأعصار، وهو المعبّر عنه بالاجتهاد.

إلا من بعد ما جاءهم العلم:

١- قال تعالى: **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (آل عمران: ١٩)

ذكر البغوي: إلا من بعد ما جاءهم العلم، يعني بيان نعته في كتبهم.

ذكر القرطبي: **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**، في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا من بعد ما جاءهم العلم، يعني بيان صفته ونبوته في كتبهم.

٢- قال تعالى: **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ** (الشورى: ١٤)

ذكر الطنطاوي: وما تفرق المتفرقون في أمر الدين. وأعرضوا عما جاءتهم به رسلهم، في كل زمان ومكان، إلا من بعد أن علموا الحق، ووصل إليهم عن طريق أنبيائهم، ولم يحملهم على هذا التفرق والاختلاف إلا البغي الذي استولى على نفوسهم، والحسد لرسل الله تعالى على ما آتاهم الله من فضله.

فقوله تعالى: **إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**، زيادة في ذمهم، فإن الاختلاف بعد العلم، أدعى إلى الذم والتحقير، لأنه يدل على أن هذا الاختلاف لم يكن عن جهل، وإنما كان عن علم وإصرار على الباطل.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: وما تفرّق المشركون بالله في أديانهم فصاروا أحزابًا، إلا من بعد ما جاءهم العلم، بأن الذي أمرهم الله به، وبعث به نوحًا، هو إقامة الدين الحقّ، وأن لا تتفرّقوا فيه.

وآتيناهم بينات من الأمر، إلا من بعد ما جاءهم العلم:

قال تعالى: **وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** (الجاثية: ١٧).

ذكر السعدي: الآيات هي المعجزات التي رأوها على يد موسى عليه السلام، ... وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: **فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**، الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض والظلم.

ذكر الطنطاوي: ذكر الرازي: المقصود من هذه الجملة، التعجب من أحوالهم، لأن:

> حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف. وها هنا صار مجيء العلم سببا لحصول الاختلاف، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والبغي.

ذكر ابن كثير: قوله تعالى: **وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ** (الشورى: ١٤)، أي الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق، **لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ**، ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

ذكر ابن عاشور: العلم هو إدراك العقل جزمًا أو ظنًّا – كما ذكرنا سابقًا –، ومجيء العِلم إليهم يُؤذن بأن رسلهم بيّنوا لهم مضارّ التفرق من عهد نوح كما حكى الله عنه في قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (نوح: ٨–٩)، إلى قوله: ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح: ٢٠). وإنما تلقَّى ذلك العِلمَ علماؤهم... والمعنى: وما تفرقت أممهم في أديانهم إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم من النهي عن التفرق في الدّين مع بيانهم لهم مفاسد التفرق وأضراره، أي أنهم تفرقوا عالمين بمفاسد التفرق غير معذورين بالجهل. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (البينة: ٤).

المبحث الخامس

العلم أساس أي حضارة إنسانية والدِّين قوام العلم[1]

قال تعالى: **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (آل عمران: ١٩).

وهذا شروع في أول غرض أنزلت فيه هذه السورة: غرض محاجّة نصارى نجران، فهذا الاستئناف من مناسبات افتتاح السورة بذكر تنزيل القرآن والتوراة والإنجيل، ثم بتخصيص القرآن بالذكر وتفضيله بأنّ هديه يفوق هدي ما قبله من الكتب، إذ هو الفرقان، فإنّ ذلك أسّ الدين القويم، ولما كان الكلام المتقدم مشتملاً على تعريض باليهود والنصارى الذين كذبوا بالقرآن، وإبطالٍ لقول وفد نجران لما طلب منهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام: «أَسْلَمْنَا قبلَك»، فقال لهم: **(كَذَبْتُم)**. روى الواحدي، ومحمد بن إسحاق: أنّ وفد نجران لما دخلوا المسجد النبوي تكلم السيد والعاقب، فقال لهما رسول الله: **(أَسْلِمَا)** قالا: «قد أسلمنا قبلك» قال: **(كَذَبتُما، مَنعَكُما مِنَ الإسلامِ ثَلاثٌ فيكُما: عِبادَتُكُما الصَّليبَ)**، ناسب أن ينوّه بعد ذلك بالإسلام الذي جاء به القرآن، ولذلك عطف على هذه الجملة قوله: **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ** (آل عمران: ١٩).

---

[1] تفسير ابن عاشور، الآية ١٩ من سورة البقرة، بتصرف.

والدين حقيقته في الأصل: الجزاء، ثم صار حقيقة عرفية يطلق على: مجموع عقائد، وأعمال يلقّنها رسولٌ من عند الله ويَعِدُ العاملين بها بالنعيم والمعرضين عنها بالعقاب. ثم أُطلق على ما يشْبِه ذلك مما يضعه بعض زعماء الناس من تلقاء عقله فتَلتزمه طائفة من الناس. وسمّي الدين ديناً لأنّه يترقب منه مُتَّبِعُهُ الجزاءَ عاجلاً أو آجلاً، فما من أهل دين إلاّ وهم يترقّبون جزاءً من رب ذلك الدين، فالمشركون يطمعون في إعانة الآلهة ووساطتهم ورضاهم عنهم، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقال أبو سفيان يوم أحُد: أعْلُ هُبَلْ. وقال يوم فتح مكة لما قال له العباس: أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله: «لقد علمتُ أنْ لو كان معه إله غَيرُه لقد أغنى عَنّي شيئًا». وأهل الأديان الإلهيَّة يترقّبون الجزاء الأوْفَى في الدنيا والآخرة، فأول دين إلهي كان حقًا وبه كان اهتداء الإنسان، ثم طرأت الأديان المكذوبة، وتشبّهت بالأديان الصحيحة، قال الله تعالى تعليمًا لرسوله: **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** (الكافرون: ٦) وقال: **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ** (يوسف: ٧٦).

وقد عرّف العلماء الدين الصحيح بأنّه:

الدِّين: وضعٌ إلهيٌّ سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخيْر باطنًا وظاهرًا.

والإسلام عُلم بالغلبة على مجموع الدِّين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، كما أُطلق على ذلك الإيمان أيضًا، ولذلك لقب أَتباع هذا الدين بالمسلمين وبالمؤمنين، وهو الإطلاق المراد هنا، وهو تسمية بمصدر أَسْلَم إذا أذْعَن ولم يعاند إذعانًا عن اعتراف بحق لا عن عجز، وهذا اللقب أولى بالإطلاق على هذا الدين من لقب الإيمان؛ لأنّ الإسلام هو المظهر البين لمتابعة الرسول فيما جاء به من الحق،

واطّراح كل حائل يحول دون ذلك، بخلاف الإيمان فإنّه اعتقاد قلبي، ولذلك قال الله تعالى: **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ** (الحج: ٧٨) وقال: **فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** (آل عمران: ٢٠) ولأنّ الإسلام لا يكون إلاّ عن اعتقاد، لأنّ **الفعل أثر الإدراك**، بخلاف العكس فقد يكون الاعتقاد مع المكابرة.

وربما **أُطلق الإسلام على (خصوص الأعمال)؛ والإيمان على (الاعتقاد)**، وهو إطلاق مناسب لحالتي التفكيك بين الأمرين في الواقع، كما في قوله تعالى، خطاباً لقوم أسلموا متردّدين: **قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** (الحجرات: ١٤)، أو التفكيك في تصوير الماهية عند التعليم لحقائق المعاني الشرعية أو اللغوية كما وقع في حديث جبريل: من ذِكر معنى الإيمان، والإسلام، والإحسان.

والتعريف في الدين تعريف الجنس؛ إذ لا يستقيم معنى العهد الخارجي هنا وتعريف الإسلام تعريف العلم بالغلبة: لأنّ الإسلام صار علَماً بالغَلَبة على الدين المحمّدي. فقوله: إن الدين عند الله الإسلام، صيغة حصر، وهي تقتضي في اللسان حصر المسند إليه، وهو الدين، في المسند، وهو الإسلام، على قاعدة الحصر بتعريف جزئي الجملة، أي لا دين إلا الإسلام، وقد أكّد هذا الانحصار بحرف التوكيد.

وقولُه: عند الإسلام، وصف للدين، والعندية عندية الاعتبار والاعتناءِ وليست عندية علم: فأفاد، أنّ الدين الصحيح هو الإسلام، فيكون قصراً للمسند، إليه باعتبار قيد فيه، لا في جميع اعتباراته.

وإذ قد جاءت أديان صحيحة، أمر الله بها، فالحصر مُؤَّول: إمّا باعتبار أنّ الدين الصحيح عند الله، حينَ الإخبار، وهو الإسلام، لأنّ الخبر ينظر فيه إلى وقت الإخبار؛ إذ الأخبار كلّها حقائق في الحال، ولا شك أنّ وقت الإخبار ليس فيه دين صحيح غير الإسلام؛ إذ قد عرض لبقية الأديان الإلهية، من خلط الفاسد بالصحيح، ما اختل لأجله مجموع الدين، وإما باعتبار الكمال عند الله فيكون القصر باعتبار سائر الأزمان والعصور؛ إذ لا أكمل من هذا الدين، وما تقدّمه من الأديان لم يكن بالغًا غاية المراد من البشر في صلاح شؤونهم، بل كان كل دين مضى مقتصراً على مقدار الحاجة من أمة معيّنة في زمن معينّ، وهذا المعنى أولي، لأنّ مُفاده أعم، وتعبيره عن حاصل صفة دين الإسلام تجُاه بقية الأديان الإلهية أتم.

ذلك أنّ مراد الله تعالى من توجيه الشرائع وإرسال الرسل، ليس مجرّد قرع الأسماع بعبارات التشريع أو التذوّق لدَقائق تراكيبه، بل مراد الله تعالى ممّا شرع للناس هو عملهم بتعاليم رسله وكتبه، ولما كان المراد من ذلك هو العمل، جعل الله الشرائع مناسبة لقابليات المخاطبين بها، وجارية على قدر قبول عقولهم ومقدرتهم، ليتمكّنوا من العمل بها بدوامٍ وانتظام.

فلذلك كان المقصود من التدّين أن يكون ذلك التعليم الديني دأبًا وعادة لمنتحليه، وحيثُ النفوسُ لا تستطيع الانصياع إلى ما لا يتّفق مع مدركاتها، لا جرم تعينّ مراعاة حال المخاطبين في سائر الأديان. ليمكن للأمم العمل بتعاليم شرائعها بانتظام ومواظبة.

وقد كانت أحوال الجماعات البشرية، في أول عهود الحضارة، حالاتِ عكوف على عوائد وتقاليد بسيطة، ائتلفت رُويداً رويداً على حسب دواعي الحاجات، وما تلك

الدواعي، التي تسبّبت في ائتلاف تلك العوائد، إلاّ دواع غير منتشرة؛ لأنّها تنحصر فيما يعود على الفرد بحفظ حياته، ودفع الآلام عنه، ثم بحفظ حياة من يرى له مزيد اتّصال به، وتحسينِ حاله، فبذلك ائتلف نظام الفرد، ثم نظام العائلة، ثم نظام العشيرة، وهاته النُظُم المتقابسة هي نُظم متساوية الأشكال؛ إذ كلّها لا يعدو حفظ الحياة، بالغذاء والدفاعِ عن النفس، ودفعَ الآلام بالكساء والمسكن والزواج، والانتصار للعائلة وللقبيلة؛ لأنّ بها الاعتزاز، ثم ما نشأ عن ذلك من تعاون الآحاد على ذلك، بإعداد المعدّات: وهو التعاوض والتعامل، فلم تكن فكرة الناس تعدو هذه الحالة، وبذلك لم يكن لإحدى الجماعات شعور بما يجري لدى جماعة أخرى، فضلاً عن التفكير في اقتباس إحداها مما يجري لدى غيرها، وتلك حالة قناعة العيش، وقصور الهمة، وانعدام الدواعي فإذا حصلت الأسباب الآنفة عدّ الناس أنفسهم في منتهى السعادة.

وكان التباعد بين الجماعات في المواطن مع مشقة التواصُل، وما يعرض في ذلك من الأخطار والمتاعب، حائلاً عن أن يصادفهم ما يوجب اقتباس الأمم بعضها عن بعض وشعور بعضها بأخلاق بعض، فصار الصارف عن التعاون في الحضارة الفكرية مجموع حائلين: عدم الداعي، وانسداد وسائل الصدفة، اللهم إلاّ ما يعرض من وفادة وافد، أو اختلاط في نجعة أو موسم، على أنّ ذلك إن حصل فسرعان ما يطرأ عليه النسيان، فيصبح في خبر كان.

فكيف يرجى من أقوام، هذه حالهم، أن يدعوهم الداعي إلى صلاح في أوسع من دوائر مدركاتهم، ومتقارب تصوّر عقولهم، أليسوا إذا جاءهم مصلح كذلك لبسوا

له جلد النمر، فأحسّ من سوء الطاعة حرق الجمر، لذلك لم تتعلّق حكمة الله تعالى، في قديم العصور، بتشريع شريعة جامعة صالحة لجميع البشر، بل كانت الشرائع تأتي إلى أقوام معيّنين؛ وفي حديث مسلم، في صفة عرض الأمم للحساب أنّ رسول الله قال: **(فيجيء النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد)**، وفي رواية البخاري: **(فجعل النبي والنّبيئان يمرّون معهم الرهط)** الحديث. وبقي الحق في خلال ذلك مشاعًا بين الأمم، ففي كلّ أمة تجد سدادًا وأفنًا، وبعض الحق لم يزل مخبوءًا لم يُسفر عنه البيان.

ثم أخذ البشر يتعارفون بسبب الفتوح والهجرة، وتقاتلت الأمم المتقاربة المنازل، فحصل للأمم حظ من الحضارة، وتقاربت العوائد، وتوسّعت معلوماتهم، وحضارتهم، فكانت من الشرائع الإلهية: شريعة إبراهيم عليه السلام، ومن غيرها شريعة (حمورابي) في العراق، وشريعة البراهمة[1]، وشريعة المصريين التي ذكرها الله تعالى في قوله: **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ** (يوسف: ٧٦).

ثم أعقبتها شريعة إلهية كبرى وهي شريعة موسى عليه السلام التي اختلط أهلها بأمم كثيرة في مسيرهم في التيه وما بعده، وجاورتها أو أعقبتها شرائع مثل شريعة (زرادشت) في الفرس، وشريعة (كنفشيوس) في الصين، وشريعة (سولون) في اليونان.

وفي هذه العصور كلّها لم تكن إحدى الشرائع عامة الدعوة، وهذه أكبر الشرائع وهي الموسوية لم تدْعُ غير بين إسرائيل ولم تدع الأممَ الأخرى التي مرّت عليها،

[1] في الهند

وامتزجت بها، وصاهرتها، وكذلك جاءت المسيحية مقصورة على دعوة بني إسرائيل حتى دعا الناسَ إليها القدّيس بُولس بعد المسيح بنحو ثلاثين سنة.

إلى أن كان في القرن الرابع بعد المسيح حصول تقابس وتمازج بين أصناف البشر في الأخلاق والعوائد، بسببين: اضطراري، واختياري. أمّا الاضطراري فذلك أنّه قد ترامت الأمم بعضها على بعض، واتجّه أهل الشرق إلى الغرب، وأهل الغرب إلى الشرق، بالفتوح العظيمة الواقعة بين الفرس والروم، وهما يومئذ قطبا العالم، بما يتبع كل واحدة من أمم تنتمي إلى سلطانها، فكانت الحرب سجالاً بين الفريقين، وتوالت أزمانًا طويلة. وأمّا الاختياري فهو ما أبْقاه ذلك التمازج من مشاهدة أخلاق وعوائد، حسنت في أعين رائيها، فاقتبسوها، وأشياء قبحت في أعينهم، فحذِروها، وفي كلتا الحالتين نشأت يقظة جديدة، وتأسّست مدنيات متفنّنة، وتهيّأت الأفكار إلى قبول التغييرات القوية، فتهيّأت جميع الأمم إلى قبول التعاليم الغريبة عن عوائدها وأحوالها، وتساوت الأمم وتقاربت في هذا المقدار، وإن تفاوتت في الحضارة والعلوم تفاوتًا ربما كان منه ما زاد بعضَها تهيّؤا لقبول التعاليم الصحيحة، وقهقر بعضًا عن ذلك بما داخلها من الإعجاب بمبلغ علمها، أو العكوف والإلف على حضارتها.

فبلغ الأجل المراد والمعينّ لمجيء الشريعة الحق الخاتمة العامة.

فأظهر الله دين الإسلام في وقت مناسب لظهوره، واختار أن يكون ظهوره بين ظهراني أمة لم تسبِق لها سابقةُ سلطان، ولا كانت ذات سيادة يومئذ على شيء من جهات الأرض، ولكنّها أمة سلّمها الله من معظم رعونات الجماعات البشرية،

لتكون أقرب إلى قبول الحق، وأظهر هذا الدينَ بوساطة رجل منها، لم يكن من أهل العلم. ولا من أهل الدولة، ولا من ذرية ملوك، ولا اكتسب خبرة سابقة بهجرة أو مخالطة، ليكون ظهور هذا تحت الصريح، والعلم الصحيح، مِن مثله آيةً على أنّ ذلك وحي من الله نفحَ به عباده.

ثم جعل أسس هذا الدين متباعدة عن ذميم العوائد في الأمم، حتى الأمة التي ظهر بينها، وموافقة للحق ولو كان قد سبق إليه أعداؤها، وكانت أصوله مَبنية على الفطرة بمعنى ألاّ تكون ناظرة إلاّ إلى ما فيه الصلاح في حكم العقل السليم، غير مأسور للعوائد ولا للمذاهب، قال تعالى: **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** (الروم: ٣٠)، قال الشيخ أبو علي ابن سينا: «الفطرة أن يتوهّم الإنسان نفسه حصل في الدنيا دفعة وهو عاقل، لم يسمع رأيًا، ولم يعتقد مذهبًا، ولم يعاشر أمة، لكنّه شاهد المحسوسات، ثم يعرِض على ذهنه الأشياء شيئًا فشيئًا فإن أمكنه الشك في شيء فالفطرة لا تشهد به، وإن لم يمكنه الشك فيه فالفطرة توجبه، وليس كلّ ما توجبه الفطرة بصادق، بل الصادق منه ما تشهد به فطرة القوة التي تسمّى عقلاً، قبل أن يعترضه الوهْم».

ويدخل في الفطرة الآداب العتيقة التي اصطلح عليها كافة عقلاء البشر، وارتاضت نفوسهم بها، إذا كانت تفيدهم كمالاً، ولا تفضي إلى فساد، وذلك أصول قواعد حفظ النسب والعرض خاصة. فبهذا الأصل: أصلِ الفطرة كان الإسلام دينًا صالحًا لجميع الأمم في جميع الأعصر.

ثم ظهر هذا الأصل في تسعة مظاهر خادمةٍ له ومهيّئةٍ جميع الناس لقبوله.

المظهر الأول: إصلاح العقيدة بحمل الذهن على اعتقادٍ لا يشوبه تردّد ولا تمويه ولا أوهام ولا خرافات، ثم بِكون عقيدته مبنية على الخضوع لواحد عظيم، وعلى الاعتراف باتّصاف هذا الواحد بصفات الكمال التامة التي تجعل الخضوع إليه اختياريًا، ثم لتصيرَ تلك الكمالات مطمح أنظار المعتقد في التخلّق بها ثم بحمل جميع الناس على تطْهير عقائدهم حتى يتّحد مبدأ التخلّق فيهم: **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** (آل عمران: ٦٤).

وكان إصلاح الاعتقاد أهمّ ما ابتدأ به الإسلام، وأكثرَ ما تعرّض له؛ وذلك لأنّ إصلاح الفكرة هو مبدأ كلّ إصلاح؛ ولأنّه لا يرجى صحٌّ لقوم تلطَّخت عقولهم بالعقائد الضالّة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة: خوفًا من لا شَيء، وطمعًا في غير شيء، وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي؛ لأنّ المرء إنسان بروحه لا بجسمه.

ثم نشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي: عزّة النفس، وأَصَالة الرأي، وحرية العقل، ومساواة الناس فيما عدا الفضائل.

وقد أكثر الإسلام شرح العقائد إكثاراً لا يشبهه فيه دين آخر؛ بل إنّك تنظر إلى كثير من الأديان الصحيحة، فلا ترى فيها من شرح صفات الخالق إلاّ قليلاً.

المظهر الثاني: جمعه بين إصلاح النفوس، بالتزكية، وبين إصلاح نظام الحياة، بالتشريع، في حين كان معظم الأديان لا يتطرّق إلى نظام الحياة بشيء، وبعضها وإن تطرّق إليه إلاّ أنّه لم يوفه حقه، بل كان معظم اهتمامها منصرفًا إلى المواعظ والعبادات، وقد قرن القرآن المصلحتين في غير ما آية، قال تعالى: **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (النحل: ٩٧).

المظهر الثالث: اختصاصه بإقامة الحجة، ومجادلة المخاطبين بصنوف المجادلات وتعليل أحكامه، بالترغيب وبالترهيب، وذلك مراعاةً لمراتب نفوس المخاطبين، فمنهم العالم الحكيم الذي لا يقتنع إلاّ بالحجة والدليل، ومنهم المكابر الذي لا يرعوي إلاّ بالجدل والخطابة، ومنهم المترهّب الذي اعتاد الرغبة فيما عند الله، ومنهم المكابر المعاند، الذي لا يقلعه عن شغبه إلاّ القوارع والزواجر.

المظهر الرابع: أنّه جاء بعموم الدعوة لسائر البشر، وهذا شيء لم يسبق في دين قبله قط، وفي القرآن: **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** (الأعراف: ١٥٨)، وفي الحديث الصحيح: **(أعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنّ أحَدٌ قبلي فذكر وكانَ الرسول يُبعث إلى قومه خاصة وبُعِثْتُ إلى الناس عامة)** وقد ذكر الله تعالى الرسل كلّهم فذكر أنّه أرسلهم إلى أقوامهم.

والاختلاف في كون نوح رسولاً إلى جميع أهل الارض، إنّما هو مبْني: على أنّه بعد الطوفان انحصر أهل الأرض في أتباع نوح، عند القائلين بعموم الطوفان سائر

الارض، ألاَ ترى قوله تعالى: **وَلَقَدْأَرْسَلْنَانُوحًاإِلَىٰقَوْمِهِ** (العنكبوت: ١٤) وأيَّامًا كان احتمال كون سكّان الارض في عصر نوح هم من ضمّهم وطن نوح، فإن عموم دعوته حاصل غير مقصود.

المظهر الرابع: الدوام، ولم يَدّعِ رسول من الرسل أنّ شريعته دائمة، بل ما من رسول، ولا كتاب، إلاّ تجد فيه بشارة برسول يأتي من بعده.

المظهر الخامس: الإقلال من التفريع في الأحكام، بل تأتي بأصولها ويُترك التفريع لاستنباط المجتهدين وقد بيّن ذلك أبو إسحاق الشاطبي في تفسير قوله تعالى: **مَّا فَرَّطْنَافِي الْكِتَابِمِنشَيْءٍ** (الأنعام: ٣٨) لتكون الأحكام صالحة لكلّ زمان.

المظهر السادس: أنّ المقصود من وصايا الأديان إمكان العمل بها، وفي أصول الأخلاق أنّ التربية الصحيحة هي التي تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينها وبين خواطر الشرور؛ لأنّ الشرور، إذا تَسرَّبت إلى النفوس، تعذّر أو عسر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل الناس على متابعة وصاياها بالمباشرة، فجاء الإسلام يحمل الناس على الخير بطريقتين: طريقة مباشرة، وطريقة سدّ الذرائع الموصلة إلى الفساد، وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل وأحسبها أنّها من جملة ما أريد بالمشتبهات في حديث: **(إن الحلال بيّن وإنّ الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس)**.

المظهر السابع: الرأفة بالناس حتى في حملهم على مصالحهم بالاقتصار في التشريع على موضع المصلحة، مع تطلب إبراز ذلك التشريع في صورة ليّنة، وفي القرآن:

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ (البقرة: ١٨٥) وفي الحديث: **(بُعثت بالحنيفية السَّمْحَة ولن يشادّ هذا الدين أحد إلاّ غلبه)**، وكانت الشرائع السابقة تحمل على المتابعة بالشدّة، فلذلك لم تكن صالحة للبقاء؛ لأنّها روعي فيها حال قساوة أمم في عصور خاصة، ولم تكن بالتي يُناسبها ما قُدِّر مصيرُ البشر إليه من رقّة الطباع وارتقاء الأفهام.

المظهر الثامن: امتزاج الشريعة بالسلطان في الإسلام، وذلك من خصائصه؛ إذ لا معنى للتشريع إلاّ تأسيس قانون للأمة، وما قيمة قانون لا تحميه القوة والحكومة. وبامتزاج الحكومة مع الشريعة أمكن تعميم الشريعة، واتّحاد الأمة في العمل والنظام.

المظهر التاسع: صراحة أصول الدين، بحيث يتكرّر في القرآن ما تُستَقْرَى منه قواطعُ الشريعة، حتى تكونَ الشريعة معصومة من التأويلات الباطلة، والتحريفات التي طرأت على أهل الكتب السابقة، ويزداد هذا بيانًا عند تفسير قوله تعالى: **فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** (آل عمران: ٢٠).

وعن قوله تعالى: **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (آل عمران: ١٩).

عُطِفَ قوله: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب، على قوله: إن الدين عند الله الإسلام، للإخبار عن حال أهل الكتاب من سوء تلقّيهم لدين الإسلام، ومن سوء فهمهم في دينهم.

وجيء في هذا الإخبار بطريقة مؤذنة بورود سؤال؛ إذ قد جيء بصيغة الحصر: لبيان سبب اختلافهم، وكأنّ اختلافَهم أمر معلوم للسامع. وهذا أسلوب عجيب في الإخبار عن حالهم إخباراً يتضمّن بيان سببه، وإبطال ما يَتراءى من الأسباب غير ذلك، مع إظهار المقابلة بين حال الدِّينِ الذي هم عليه يومئذ من الاختلاف، وبين سلامة الإسلام من ذلك.

وذلك أنّ قوله: إن الدين عند الله الإسلام، قد آذَن بأنّ غيره من الأديان لم يبلغ مرتبة الكمال والصلاحية للعموم، والدوام، قبل التغيير، بلَ ما طرأ عليها من التغيير، وسوء التأويل، إلى يومَ مجيء الإسلام، ليعلم السامعون أنّ ما عليه أهل الكتاب لم يصل إلى أكمل مراد الله من الخلق على أنّه وقع فيه التغيير والاختلاف، وأن سبب ذلك الاختلاف هو البغي بعدما جاءهم العلم، مع التنبيه على أنّ سبب بطلان ما هم عليه يومئذ هو اختلافهم وتغييرهم، ومن جملة ما بدّلوه الآيات الدالة على بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وفيه تنبيه على أنّ الإسلام بعيد عن مثل ما وقعوا فيه من التحريف، كما تقدّم في المظهر التاسع، ومن ثم ذمّ علماؤنا التأويلات البعيدة، والتي لم يَدْعُ إليها داعٍ صريح.

وقد جاءت الآية على نَظم عجيب يشتمل على معانٍ:

- منها التحذير من الاختلاف في الدين، أي في أصوله، ووجوب تطلّب المعاني التي لا تناقض مقصد الدين، عبرة بما طرأ على أهل الكتاب من الاختلاف.
- ومنها التنبيه على أنّ اختلاف أهل الكتاب حصل مع قيام أسباب العلم بالحق، فهو تعريض بأنّهم أساؤوا فهم الدين.

- ومنها الإشارة إلى أنّ الاختلاف الحاصل في أهل الكتاب نوعان: أحدهما: اختلاف كل أمة مع الأخرى في صحة دينها كما قال تعالى: **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** (البقرة: ١١٣)، وثانيهما: اختلاف كل أمة منهما فيما بينها وافتراقها فرقًا متباينةَ المنازع. كما جاء في الحديث: **(اختلفت اليهود على اثنتين وسبعين فرقة)** يُحَذِّر المسلمين ممّا صنعوا.
- ومنها أنّ اختلافهم ناشئ عن بغي بعضهم على بعض.
- ومنها أنّهم أجمعوا على مخالفة الإسلام والإعراضِ عنه بغيًا منهم وحسدًا، مع ظهور أحقّيته عند علمائهم وأحبارهم كما قال تعالى: **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** (البقرة: ١٤٦-١٤٧)، وقال تعالى: **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** (البقرة: ١٠٩) أي أعرضوا عن الإسلام، وصمّموا على البقاء على دينهم، وودّوا لو يردّونكم إلى الشرك أو إلى متابعة دينهم حسدًا على ما جاءكم من الهُدى بعد أن تبينّ لهم أنّه الحق.

ولأجل أن يسمح نَظم الآية بهذه المعاني، حُذِف متعلِّق الاختلاف في قوله: اختلف الذين أوتوا الكتاب، ليشمل كلّ اختلاف منهم: من مخالفة بعضهم بعضًا في الدين الواحد، ومخالفة أهل كلّ دين لأهل الدين الآخر، ومخالفة جميعهم للمسلمين في صحّة الدين.

وحُذف متعلّق العلم في قوله: من بعد ما جاءهم العلم، لذلك.

وجُعل «بغيا» عقب قوله: «من بعد ما جاءهم العلم» ليتنازعه كلٌّ من فعل (اختلف) ومن لفظ (العِلم).

وأُخِّر بينَهم عن جميع ما يصلح للتعليق به: ليتنازعه كلّ من فعل (اختلف) وفِعل (جاءَهم) ولفظِ (العِلم) ولفظ (بَغيا).

وبذلك تعلم أنّ معنى هذه الآية أوسع معانيَ من معاني قوله تعالى: **وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** (البقرة: ٢١٣)، وقوله: **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ** (البيّنة: ٤) كما ذكرناه في ذينك الموضعين لاختلاف المقامين.

فاختلاف الذين أوتوا الكتاب يشمل اختلافهم فيما بينهم: أي اختلاف أهل كل ملّة في أمور دينها، وهذا هو الذي تشعر بها صيغة اختلف كاختلاف اليهود بعد موسى غيرَ مرة، واختلافِهم بعد سليمانَ إلى مملكتين: مملكة إسرائيل، ومملكة يَهُوذا، وكيف صار لكلّ مملكة من المملكتين تديُّنٌ يخالف تديُّنَ الأخرى، وكذلك اختلاف النصارى في شأن المسيح، وفي رسوم الدين، ويكون قوله: بينهم حالاً لبغيا: أي بغيا متفشيّا بينهم، بأن بغَى كلّ فريق على الآخر.

ويشمل أيضًا الاختلاف بيْنهم في أمر الإسلام؛ إذ قال قائل منهم: هو حق، وقال فريق: هو مرسل إلى الأميّين، وكفر فريق، ونافق فريق. وهذا الوجه أوفى مناسبة بقوله تعالى: إن الدين عند الله الإسلام، ويكون قوله: بينهم، على هذا وصفًا لبغيًا: أي بغيًا واقعًا بينهم.

ومجيء العلم هو الوحي الذي جاءت به رسلهم وأنبياؤُهم، لأنّ كلمة جاء مؤذنة بعلم متلقّى من الله تعالى، يعني أنّ العلم الذي جاءهم كان من شأنه أن يصدّهم عن الاختلاف في المراد، إلاّ أنّهم أساؤوا فكانوا على خلاف مراد الله من إرسال الهدى.

وانتصب (بغيًا) على أنّه مفعول لأجله، وعامل المفعول لأجله: هو الفعل الذي تفرّغ للعمل فيما بعدَ حرف الاستثناء، فالاستثناء كان من أزمان وعلل محذوفة والتقديرُ: ما اختلفوا إلاّ في زمن بعدما جاءهم العلم وما كان إلاّ بغيًا بينهم. ولك أن تجعل بغيًا منصوبًا على الحال من الذين أوتوا الكتاب، وهو وإن كان العامل فيه فعلاً منفيًا في اللفظ إلاّ أن الاستثناء المفرّغ جعله في قوه المثبت، فجاء الحال منه عقب ذلك، أي حال كون المختلفين باغين، فالمصدر مؤوّل بالمشتق. ويجوز أن تجعله مفعولاً لأجله من (اختلف) باعتبار كونه صار مثبتًا كما قرّرنا.

وقد لمّحت الآية إلى أنّ هذا الاختلاف، والبغي كُفْر، لأنّه أفضى بهم إلى نقض قواعد أديانهم، وإلى نكران دين الإسلام، ولذلك ذيّله بقوله: ومن يكفر بآيات الله...

وقولُه: فإن الله سريع الحساب، تعريض بالتهديد، لأنّ سريع الحساب إنّما يبتدىء بحساب من يكفر بآياته، والحساب هنا كناية عن الجزاء، كقوله: **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ** (الشعراء: ١١٣).

وفي ذكر هذه الأحوال الذميمة من أحوال أهل الكتاب تحذير للمسلمين أن يقعوا في مثل ما وقع فيه أولئك، والمسلمون وإن اختلفوا في أشياء كثيرة لم يكن اختلافهم إلاّ اختلافًا علميًا فرعيًا، ولم يختلفوا اختلافًا ينقض أصول دينهم بل غاية الكلّ الوصول إلى الحق من الدين، وخدمة مقاصد الشريعة، فبَنُو إسرائيل عبدوا العجل والرسولُ بين ظهرانيْهم، وعبدوا آلهة الأمم غيرَ مرة، والنصارى عبدوا مريم والمسيح، ونقضوا أصول التوحيد، وادّعوا حلول الخالق في المخلوق. فأما المسلمون لما قال أحدُ أهل التصوّف منهم كلامًا يوهم الحُلول، حكم علماؤهم بقتله.

المبحث السادس
الإيمان والعمل

تكرر قول الله تعالى: **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**، خمسين مرة في آيات القرآن الكريم، وقد جمع هذا القول الكريم بين عمل القلب وعمل الجوارح، فالإيمان يكون بالقلب وهذا عمله، ولا سبيل إليه إلا بالعلم، والعمل يكون بالجوارح ومنها الإقرار باللسان، ولا يكون إلا بالإخلاص بعد سلامة القلب من الشرك والشك.

لقد جمعت هذه العبارة بين: (العلم) و (العمل)، حيث تتبادل الكلمتان علم وعمل، مواقع أحرفها؛ فعينٌ بعدها (لام وميم)، وعينٌ بعدها (ميم ولام). إنها عجائب العربية التي تعجز عنها غيرها. وحال جميع الناس؛ إما عالم، أو متعلم، ودون ذلك غير محمود، روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولَه: **(ألا إنَّ الدُّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها، إلاّ ذِكْرُ اللهِ وما والاهُ، وعالمٌ، أو مُتعلمٌ)**.

الإيمان والعلم

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سُئل عن الإيمان قال[1]: **(الإِيمَانُ بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً، والحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)**، وروى رضي الله عنه أيضًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سُئل عن الإيمان قال[2]: **(أنْ**

[1] صحيح البخاري
[2] صحيح البخاري

تُؤْمِنَ باللَّه، ومَلاَئِكَتِه، وكُتُبِه، وبِلِقَائِه، ورُسُلِه وتُؤْمِنَ بالبَعْثِ)، وروى عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سُئل عن الإيمان قال: **(أن تُؤمِنَ باللهِ، ومَلائِكَتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، وبالقدَرِ خَيرِه وشَرِّه)**[1].

وأجمع المسلون أن أركان الإيمان هي:

١. الإيمان بالله.

٢. الإيمان بالملائكة.

٣. الإيمان بالكتب السماوية.

٤. الإيمان برسل الله.

٥. الإيمان بيوم البعث.

٦. الإيمان بالقدر خيره وشره.

ويكون الإيمان بالكتب السماوية ورسل الله، إيمانًا حسيًا، لأن الناس شاهدت الرسل وقرأت كتب الله تعالى التي جاء بها رسله عليهم الصلاة والسلام. بينما يكون الإيمان بالقدر خيره وشره، إيمان غيبي، يتحول إلى حسي بعد وقوعه.

لكن الإيمان بالله وملائكته ولقائه وبيوم البعث، هو إيمان غيبي غير محسوس ومحله القلب، وذلك لتعلقه بتصديق ما لا يُرى ولا يُدرك بالحواس، إنما يُدرك بالوحي الذي خُصَّ به الأنبياء عليهم السلام، فيكون خبراً صادقًا، يتلقاه العقل السليم من النبي المرسل (وكلهم صادقون)، وهذا الخبر يحصل في الحياة الدنيا لكنه لا يقع

[1] تخريج المسند لشعيب

ملموساً إلا في الحياة الآخرة، لذلك لابد أن يكون محل الاعتقاد فيه قلب سليم، قال تعالى: إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء: ٨٩)

ذكر السعدي: القلب السليم معناه الذي سلم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله وهواه تابعا لما جاء عن الله.

ذكر القرطبي: خُصَّ القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سَلِم سَلِمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح.

ذكر ابن عاشور: الاقتصار على السليم هنا لأن السلامة باعث الأعمال الصالحة الظاهرية وإنما تثبت للقلوب هذه السلامة في الدنيا باعتبار الخاتمة، فيأتون بها سالمة يوم القيامة بين يدي ربّهم.

العمل الصالح

هو العمل الصالح الذي تفعله الجوارح وتُصدِّق به الإيمان.

ذكر البغوي: العمل الصالح هو الذي فيه أربعة أشياء: العلم، والنية، والصبر، والإخلاص.

والنتيجة: إنه بسلامة القلب من الشرك والشك، ستكون الجوارح سليمة وعملها مُخلصاً لله دون غيره.

جاء في صحيح البخاري، في قصة إسراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف هيَّأ جبريل عليه السلام قلب رسول الله، ليكون مليئًا بنور الإيمان والحكمة؛ وجاء في

الحديث الطويل: (... **فَشَقَّ جِبْرِيلُ ما بينْ نَحْرِهِ إلى لَبَّتِهِ حتَّى فَرَغَ من صَدْرِهِ وجَوْفِهِ، فَغَسَلَهُ من مَاءِ زَمْزَمَ بيَدِهِ، حتَّى أنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أُتِيَ بطَسْتٍ من ذَهَبٍ فيه تَوْرٌ من ذَهَبٍ، مَحْشُوًّا إيمَانًا وحِكْمَةً، فَحَشَا به صَدْرَهُ ولَغَادِيدَهُ - يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ -**...)، لذلك يصطفي رب العالمين رسله وأنبياءه ويختارهم ويعلمهم.

مفاتح علم الغيب

جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**مفاتح الغيب خمسة: إنّ الله عندَه علمُ الساعة، ويُنزّل الغيث، ويعلَم ما في الأرحام، وما تدري نفس مَاذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت إنّ الله عليم خبير**).

قال تعالى: **وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ** (الأنعام: ٥٩).

ذكر ابن عاشور:

- العلم: معرفة الأشياء بكيفية اليقين.
- المراد بالكتاب المبين: العلم الثابت الذي لا يتغيّر، وما عسى أن يكون عند الله من آثار العلم من كتابة أو غيرها لم يطلعنا على كُنهها.
- مفاتح الغيب: أي عنده علم الغيب الذي لا يعلمه غيرُه. وهي جَمْعٌ مضافٌ يعمُّ كلّ المغيّبات، لأنّ علمها كلّها خاصّ به تعالى، وأمّا الأمور التي لها أمارات مثل أمارات الأنواء وعلامات الأمراض عند الطبيب فتلك ليْست من الغيب بل

من أمور الشهادة الغامضة. وغمُوضُها متفاوت والناس في التوصّل إليْها متفاوتون ومعرفتهم بها من قبيل الظنّ لا من قبيل اليقين فلا تسمّى عِلمًا، وقيل: المفاتح جمع مَفْتَح بفتح الميم وهو البيت أو المخزن الذي من شأنه أن يُغلق على ما فيه ثم يُفْتح عند الحاجة إلى ما فيه، ونُقل هذا عن السدّي، فيكون استعارة مصرّحة والمشبَّه هو العلم بالغيب شبّه في إحاطته وحَجبه المغيِّبات ببيت الخزم تشبيه معقول بمحسوس.

- عُلم من تلك الآيات عموم علمه تعالى بالكلِّيّات والجزئيّات. وفيه إبطال لقول جمهور الفلاسفة أنّ الله يعلم الكلِّيّات خاصّة ولا يعلم الجزئيّات، زعمًا منهم بأنَّهم ينزّهون العلم الأعلى عن التجزّي؛ فهم أثبتوا صفة العلم لله تعالى وأنكروا تعلّق علمه بجزئيات الموجودات. وهذا هو المأثور عنهم عند العلماء. وقد تأوّله عنهم ابن رشد الحفيدُ ونصير الدين الطُوسي. وقال الإمام الرازي في «المباحث المشرقية»: ولا بدّ من تفصيل مذهب الفلاسفة فإنّ اللائق بأصولهم أن يقال: الأمور أربعة أقسام؛ فإنَّها إمَّا ألا تكون متشكِّلة ولا متغيِّرة، وإمَّا أن تكون متشكّلة غير متغيِّرة، وإمَّا أن تكون متغيِّرة غير متشكّلة؛ وإمَّا أن تكون متشكّلة ومتغيّرة معًا. فأمَّا ما لا تكون متشكِّلة ولا متغيِّرة فإنَّه تعالى عالم به سواء كان كليًّا أو جزئيًا. وكيف يمكن القول بأنَّه تعالى لا يعلم الجزئيّات منها مع اتِّفاق الأكثر منهم على علمه تعالى بذاته المخصوصة وبالعقول.

لقد أخفى الله تعالى عن خلقه أشياء لم يُطلع عليها أحداً إلا من شاء وفي الوقت الذي يشاء، ومن ذلك:

١. علم الساعة ووقتها.

٢. نزول الغيث.

٣. ما في الأرحام.

٤. ماذا تكسب نفس في قادم أيامها؟.

٥. متى تموت النفس وأين؟.

قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (لقمان: ٣٤).

العلم الغيبي يحتاج خبرًا صادقًا، وهذا يُشبه مفاتحه

الخبر الغيبي، قد يكون خاصًا كما في حالة الخضر عليه السلام، لأنه كان يعلم التأويل دون كليم الله موسى عليه السلام، لقوله تعالى عنه: **وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** (الكهف: ٦٥)، وقد يكون الخبر الغيبي مُعلنًا عنه للعموم، كقوله تعالى: **وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ** (القارعة: ١٠-١١) فالنار نار حامية تتوعد وتنتظر الكافرين، وهذا إخبار غيبي معلن ليتوقى الناس هذا المصير المؤلم.

وجاء في القصة الثالثة من قصص سورة الكهف، حكاية عن عبد صالح من عباد الله يقال أنه الخضر، لاقاه موسى عليه السلام في رحلته، وقد آتاه الله علمًا غير الذي أوتيه موسى عليه السلام: **وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**، وبرجوع موسى عليه

السلام إليه دلالة على أن العلم يؤتى ولا يأتي، على الرغم من سعة علم موسى عليه السلام فهو نبي الله وكليمه.

قال تعالى: **وَعَلَّمْنَاهُمِن لَّدُنَّا عِلْمًا** (الكهف: ٦٥)

ذكر البغوي: أي علم الباطن إلهامًا.

ذكر القرطبي: أي علم الغيب.

ذكر الطبري: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (**مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**): أي من عندنا علمًا. وكان سبب سفر موسى صلى الله عليه وسلم وفتاه، ولقائه هذا العالم الذي ذكره الله في هذا الموضع فيما ذكر، أن موسى سُئل: هل في الأرض، أعلم منك؟ فقال: لا أو حدّثته نفسه بذلك، فكره ذلك له، فأراد الله تعريفه أن من عباده في الأرض من هو أعلم منه، وأنه لم يكن له أن يحتم على ما لا علم له به، ولكن كان ينبغي له أن يَكِل ذلك إلى عالمه. وقال آخرون: بل كان سبب ذلك أنه سأل الله جلّ ثناؤه أن يدله على عالم يزداد من علمه إلى علم نفسه.

قال تعالى: **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** (الكهف: ٦٦)

ذكر القرطبي: في هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله.

قال تعالى: **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** (الكهف: ٦٧)

ذكر ابن كثير: فعندها قال الخضر لموسى: **إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**، أي: أنت لا تقدر أن تصاحبني لما ترى من الأفعال التي تخالف شريعتك؛ لأني على علم من علم الله، ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله، ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي.

ذكر القرطبي: قال الخضر: إنك لن تستطيع معي صبرا، أي: إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبَر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب.

قال تعالى: **وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا** (الكهف: ٦٨)

ذكر الطنطاوي: الخبر بمعنى العلم، يقال: خبر فلان الأمر يخبره: أي علمه. والاسم الخبر، وهو العلم بالشيء، ومنه الخبير، أي: العالم.

وكأن الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى: إني واثق من أنك لن تستطيع معى صبراً، لأن ما سأفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة، وبالمنطق العقلي، وبغيرتك المعهودة فيك، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعل، لأن المصلحة الباطنة في ذلك، وهي تخفى عليك.

ذكر الطبري: وكيف تصبر يا موسى على ما ترى مني من الأفعال التي لا علم لك بوجوه صوابها، وتقيم معي عليها، وأنت إنما تحكم على صواب المصيب وخطأ المخطئ بالظاهر الذي عندك، وبمبلغ علمك، وأفعالي تقع بغير دليل ظاهر لرأي عينك على صوابها، لأنها تبتدئ لأسباب تحدث آجلة غير عاجلة، لا علم لك بالحادث عنها، لأنها غيب، ولا تحيط بعلم الغيب خبراً يقول علماً.

بعد ذلك، شملت القصة ثلاثة أحداث، عارض فيها موسى عليه السلام الخضر رغم تعهده بالصبر على ما سيراه، فقرر الخضر أن تنتهي الصحبة والرفقة، ومن أصول التعليم أن يُخبر المعلم متعلمه وأن يفسر له لماذا فعل ما فعله، لتأكيد رسالة العلم والإخبار الكامل ليعلم المتعلم تمام العلم وليفهم تمام الفهم.

الحدث الأول: خرق السفينة دون أي سبب، فكان ظاهر الحدث أذية، ولكن باطنه صلاح لأن فيه حفظ حقوق لصغار ضعفاء.

الحدث الثاني: قتل الولد الصغير دون أي سبب، فكان ظاهر الحدث عملاً منكراً، ولكن باطنه صلاح لأن فيه حفظ حقوق لأبوين ضعفاء.

الحدث الثالث: عمارة حائط دون مقابل بعد أن رفض أهل القرية إطعامهما، فكان ظاهر الحدث إيجابيًا كعمارة الأرض إنما دون مقابل، ولكن باطنه صلاح لأن فيه حفظ حقوق لصغار ضعفاء.

قال تعالى على لسان الخضر: **قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** (الكهف: ٧٨)

ذكر السعدي: هذا فراق بيني وبينك فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحبة، ثم قال له: **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**، أي: سأخبرك بما أنكرت عليَّ، وأنبئك بما لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

ذكر القرطبي: تأويل الشيء مآله، أي قال له: إني أخبرك لم فعلت ما فعلت. وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر: إنها حجة على موسى وعجبا له، وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحا في اليم، فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك القبطي وقضائك عليه، فلما أنكر إقامة الجدار نودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر.

التأويل هنا بمثابة إخبار بعواقب الحدث الخفية الباطنة التي لو لم يحدث فيها لآلت الأمور لشيء آخر

ويلاحظ أن الأحداث الثلاثة تقسم لأزمنة ثلاث:

- الحدث الأول: يعود لعلم غيبي آني.
- الحدث الثاني: يعود لعلم غيبي ماضٍ، عَلمَ فيه علم الخضر أن كنزًا مخبأ لأولاد يتامى كان أحد آبائهما صالحًا ليستخرجاه عندما يكبران فيكون لهما رحمة.
- الحدث الثالث: يعود لعلم غيبي مستقبلي، علم فيه الخضر أن هذا الغلام سيكون شقيًا وسيُتعب أبويه الصالحين لعل الله أن يستبدله لهما بمن هو أرحم وأكثر خيرية.

الإيمان الغيبي يُستنبط بالعقل وأدواته الاستنباط، أما الإيمان الحسي فيكون بالمشاهدة.

ويكون الإيمان الغيبي استنباطيًا باستخدام العقل، أما الإيمان الحسي فيكون تجريبيًا بالمشاهدة والملاحظة باستخدام الجوارح للاستدلال على حقيقة الإيمان فتتلمسه الجوارح عيانًا. والفارق بين الإثنين واسع جدًا. فالأول أعلى درجة وأكبر أجرًا. ولا

يصح أن يُطلب الإيمان الغيبي حسيًا ابتداءً، كحالة الحواريين مثلاً، ويصح بعد أن يقع الإيمان الغيبي في القلب لزيادة اليقين، كحالة إبراهيم عليه السلام لما طلب من ربه أن يُريه كيف يحيي الموتى، قائلاً: **قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ**، وكحالة موسى عليه السلام لما طلب رؤية ربه جل في علاه، قائلاً: **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**. ويلاحظ في حالتي إبراهيم وموسى عليهما السلام استعمال اللسان طلبًا للمشاهدة عيانًا.

الإيمان العقلي

إبراهيم عليه السلام – رحلة الإيمان مثالاً:

رحلة إبراهيم عليه السلام في بحثه عن الله تعالى، رحلة مصبوغة بالإدراك العقلي، والمحاكاة، والاستنباط، وصولاً إلى معرفة الله تعالى. وكان الله تعالى قد أراه الدليل ليكون من الموقنين، قال تعالى: **وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** (الأنعام: ٧٥). ثم اصطفاه من بين خلقه، فقال عز وجل: **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** (الأنبياء: ٥١)، فعلمُ الله سابق، لاطّلاعه على أحوال خلقه جميعهم، فكان سؤال إبراهيم لأبيه استفهاميٌ استنكاريٌ لحالهم: **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** (الأنبياء: ٥٢)، وسألوه مستنكرين مستعلمين: **قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ** (الأنبياء: ٦٢)، فكان جوابه عليه السلام محاججة عقلية مؤداها

أن أَطرَقوا رؤوسهم لعلمهم أنهم خاطئون، لكن عناد الكفر يطمس الحقيقة على العقل ويجعل الفكر مترددًا: **قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ** (الأنبياء: ٦٣). ثم أتاهم بما يقبله العقل: كيف يخضع الإنسان لمن لا يضره ولا ينفعه؟، **قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ** (الأنبياء: ٦٦). وبعد أن استنكر على قومه عبادة الأصنام، ذهب للمحاكمة العقلية، فرأى كوكبًا عاليًا كبيرًا، فكانت فرضيته؛ أنه الإله، فاختاره إبراهيم عليه السلام ربًا، ثم أفَل الكوكب نهاية الليل، فرأى القمر أكثر نورًا، فاختاره ربًا، ثم أفل، فاختار الشمس لما رآها بازغة وأكبر حجمًا وأكثر قوة ونورًا، فاختارها ربًا، فلما أفلت، وجه وجهه للذي فطره واستبرأ من الشرك بالله تعالى، قائلاً: **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (الأنعام: ٧٩)، وهذه نتيجة صحيحة بعدما انتقضت كل الفرضيات التي لم يجد لها دليلاً، وساعده في ذلك ما ألقاه الله تعالى في قلبه من اليقين، بعدما أراه ملكوت السموات والأرض.

ذكر السعدي: فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان ... حيث أقام مناظرة، لبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها.

ذكر الطنطاوي: وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أقام الأدلة الحكيمة والبراهين الساطعة على وحدانية الله تعالى وسفّه المعبودات الباطلة وعابديها.

ذكر ابن كثير: اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر... والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيِّنا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام.

ذكر ابن عاشور: وهذا قد جرينا فيه على أنّ قول إبراهيم لّما رأى النيّرات: **هَٰذَا رَبِّي**، هو مناظرة لقومه واستدراج لهم، وأنّه كان موقناً بنفي إلوهيتها، وهو المناسب لصفة النبوءة أن يكون أوحى إليه ببطلان الإشراك وبالحجج التي احتجّ بها على قومه. ومن المفسّرين من قال: إنّ كلامه ذلك كان نظراً واستدلالاً في نفسه لقوله: **لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي**، فإنَّه يُشعر بأنّه في ضلال لأنَّه طلب هداية بصيغة الاستقبال أي لأجل أداة الشرط، وليس هذا بمتعين، لأنَّه قد يقوله لتنبيه قومه إلى أنّ لهم ربًّا بيده الهداية.

الإيمان الحسي

إبراهيم عليه السلام – إحياء الموتى مثالاً:

طلب خليل الله إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى أي بالمشاهدة والملاحظة، ليس ليؤمن به، بل ليطمئن قلبه، فذكر الله تعالى في كتابه العزيز تجربة حسية طلب تنفيذها من إبراهيم عليه السلام، ليريه كيفية ذلك الإحياء، وكان ضربًا بالمثل، وقد ختم الله تعالى الآية بقوله: **عَزِيزٌ حَكِيمٌ**، أي ينقاد له كل شيء وتخضع لجلاله، ضمن إطار حكمته، فلا شيء يقع عبثًا. وهذا مظهر

من مظاهر عزة الله تعالى وجبروته للدلالة على حكمته، فهو تعالى غنيٌّ عن هكذا برهان.

هذه الآية الكريمة جالت مخيلتي في موقف وجدته صعبًا، فسألت الله العون، حيث دخلت الصف في معهد الفكر الإسلامي في باريس لألقي محاضرة، فوجدت أكثر من ٤٠ متدربًا ينظرون إليّ، وأنا لا أجيد الفرنسية وشعرت أن لغتي الإنكليزية لن تسعفني أمام نظراتهم التي تتمحصني لتتعلم، فسألت الله العون، فجاءت هذه الآية في بالي، وقلت في نفسي: ما حاجة خليل الله ونبيه ورسوله، وهو من أولي العزم؛ ليسأل ربه هذا البيان؟ فقد آمن إبراهيم بعقله وبمحاكاته للنجوم بحثًا عن إله يؤمن به. فأجبت نفسي، لقد فعل مسألته هذه رحمة بأمثالي، فقررت أن أغيّر موضوع الدرس وطريقة عرضه، ليكون بالتجربة قبل بالعقل، وكنت قد وضعت نماذج رياضية تجريدية لفقه المعاملات ضمن كتاب نشرته بعنوان فقه المعاملات الرياضي.

وفعلا بدأت بشرح معادلات رياضية بحتة على السبورة والطلاب يتفاعلون معي تمامًا، إلى أن أنهيت الأيام التدريبية الثلاثة، فشرحت لهم الآيات والأحاديث الدالة، فإذ بالطلاب جميعهم يخرجون من الصف معًا دون أن أدري ماذا يريدون، فتوجهوا إلى إدارة المعهد قائلين لهم: أكثروا لنا من هذا، وقصدوني أنا. لقد وصلت الفكرة بأبسط بيان، وكان فضل الله عليّ عظيمًا، فقد أخرجني تمثيل إبراهيم عليه السلام في تجربته من أزمة كادت أن تحرجني. وقد جاء في صحيح البخاري قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِن إبْراهِيمَ)**.

قال تعالى: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (البقرة: ٢٦٠).

ذكر السعدي: أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي منقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئًا عبثًا.

ذكر الطنطاوي: قال القرطبي ما ملخصه: لم يكن إبراهيم شاكًا في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أُخبرت به، ولهذا جاء في الحديث: **(ليس الخبر كالمعاينة)**، قال الأخفش: لم يرد إبراهيم رؤية القلب، وإنما أراد رؤية العين.

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: **وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**، أي واعلم أن الله تعالى غالب على أمره، قاهر فوق عباده، حكيم في كل شؤونه وأفعاله... فهو المستحق للعبادة والخضوع.

ذكر ابن كثير: ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام، أسبابًا، منها أنه أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين.

ذكر ابن عاشور: معطوف على قوله: إنّ إبراهيم لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس.

وقوله: **لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**، معناه لينبت ويتحقّق علمي وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة وانكشاف المعلوم انكشافاً لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشُبه عن العقل، وذلك أنّ حقيقة يَطمئن: يسكن، ومصدره الاطمئنان، واسم المصدر الطُّمَأنِينَة، فهو حقيقة في سكون الأجسام، وإطلاقه على استقرار العلم في النفس وانتفاء معالجة الاستدلال أصله مجاز بتشبيه التردّد وعلاج الاستدلال بالاضطراب والحركة، وشاع ذلك المجاز حتى صار مساوياً للحقيقة، يقال اطمأنّ بَالَهُ واطمأنّ قلبه... والقلبُ مرادٌ به العلم، إذ القلب لا يضطرب عند الشك ولا يتحرك عند إقامة الدليل، وإنّما ذلك للفكر، وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس وانشراح النفس به، وقد دلّه الله على طريقة يرى بها إحياء الموتى رأي العين.

موسى عليه السلام – مثالاً:

طلب موسى كليم الله عليه السلام من ربه أن يراه، وموسى نبي الله، وذو شأن عظيم عند الله، وهو مؤمنٌ بربه وموقنٌ به، وقد طلب الرؤية والمشاهدة كما أخبرنا الله تعالى في كتابه، لكن الإنسان أضعف من الجبل الأصم الضخم، فضرب له مثلاً بأن الجبل لن يتحمل تجلي رب العزة رغم قوته وصلابته، فكيف بالمخلوق الأضعف. وهذا بيان بالتجربة الحسية.

قال تعالى: **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ**

جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(الأعراف: ١٤٣).

ذكر الطنطاوي: الذي نراه؛ أن رؤية الله في الآخرة ممكنة كما قال أهل السنة لورود الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التي تشهد بذلك، أما في الدنيا فقد منع العلماء وقوعها.

وإن لقاء الله حسبما رواه عمر رضي الله عنه كما ذكرنا في الحديث السابق، هو من الغيبيات في الدنيا لا في الآخرة.

ذكر البغوي: أي للوقت الذي ضربنا له أن نكلمه فيه. وقال أهل التفسير: إن موسى عليه السلام تطهر وطهر ثيابه ليعاد ربه لما أتى طور سيناء.

وهذا ملمحٌ جميلٌ: هنا طهّر موسى ثيابه وتطهر للقاء ربه، وفي حديث شق الصدر طهر جبريل عليه السلام محمداً عليه الصلاة والسلام تمهيداً لرؤية ربه.

الحواريون والمائدة – مثالاً:

طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن يُنزل عليهم مائدة من السماء ليزداد إيمانهم يقيناً، فيأكلوا منها ويكونوا شهود عيان عليها، فمالوا بطلبهم هذا إلى العلم الاستدلالي، لترسيخ إيمانهم، ولتعزيز قوة يقينهم. فتحولوا عن الإيمان الغيبي إلى الإيمان الحسي.

قال ابن عاشور: قد نهاهم نبيهم عليه السلام عن طلب المعجزات إن كانوا مؤمنين. ثم لما أجاب الله دعوته وأنزل المائدة عليهم، توعد المخالفين والجاحدين منهم بالوعيد والعذاب الأليم.

قال تعالى : **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (المائدة : ١١٢) .

ذكر القرطبي : إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك، وفي قراءة أخرى : هل تستطيع بالتاء وربك بالنصب، وقرأ الباقون بالياء وربك بالرفع، بمعنى هل يطيعك ربك إن سألته أن ينزل فيستطيع بمعنى يطيع...

وعن معاذ بن جبل قال : أقرأنا النبي صلى الله عليه وسلم "هل تستطيع ربك" قال معاذ : وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم مراراً يقرأ بالتاء "هل تستطيع ربك" وقال الزجاج : المعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله، وقيل : هل تستطيع أن تدعو ربك أو تسأله؛ والمعنى متقارب .

ذكر ابن كثير : قال : (**اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**) أي : فأجابهم المسيح عليه السلام، قائلاً لهم : اتقوا الله، ولا تسألوا هذا، فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين .

ذكر ابن عاشور : المراد بالتقوى في كلام عيسى ما يشمل الإيمان وفروعه . وقيل : نهاهم عن طلب المعجزات، أي إن كنتم مؤمنين فقد حصل إيمانكم فما الحاجة إلى المعجزة .

قال تعالى : **قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ** (المائدة : ١١٣)

ذكر الطنطاوي: نرغب في نزولها لكي تزداد قلوبنا اطمئنانًا إلى أنك صادق فيما تبلّغه عن ربك، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي، يؤدي إلى رسوخ الإيمان، وقوة اليقين.

ذكر القرطبي: قال الماوردي: وهذا أشبه؛ لأنهم لو احتاجوا لم ينهوا عن السؤال، وقولهم: وتطمئن قلوبنا يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: تطمئن إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبيًا.

الثاني: تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا لدعوتنا.

الثالث: تطمئن إلى أن الله تعالى قد أجابنا إلى ما سألنا.

قال المهدوي: أي تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا.

قال الثعلبي: نستيقن قدرته فتسكن قلوبنا. ونعلم أن قد صدقتنا بأنك رسول الله ونكون عليها من الشاهدين لله بالوحدانية، ولك بالرسالة والنبوة.

وقيل: نكون عليها من الشاهدين لك عند من لم يرها إذا رجعنا إليهم.

قال تعالى: **قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** (المائدة: ١١٥)

ذكر الطبري: وهذا جواب من الله تعالى ذكَّره القومَ فيما سألوا نبيّهم عيسى مسألةَ ربهم، من إنزاله مائدة عليهم. فقال تعالى ذكره: إني منزلها عليكم، أيها الحواريون، فمطعمكموها، "**فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ**"، يقول: فمن يجحد بعد إنزالها عليكم، وإطعاميكموها منكم رسالتي إليه، وينكر نبوة نبيِّي عيسى صلى

الله عليه وسلم، ويخالفْ طاعتي فيما أمرته ونهيته: **فَإِنِّيأُعَذِّبُهُعَذَابًالَّاأُعَذِّبُهُ أَحَدًامِّنَالْعَالَمِينَ**، من عالميّ زمانه. ففعل القوم، فجحدوا وكفروا بعد ما أنزلت عليهم، فيما ذكر لنا، فعذبوا، فيما بلغنا، بأن مُسِخوا قردة وخنازير.

حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: "**إِنِّيمُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**" الآية، ذُكر لنا أنهم حوِّلوا خنازير.

حدثنا ابن بشار قال، حدثنا عبد الوهاب ومحمد بن أبي عدي، ومحمد بن جعفر، عن عوف، عن أبي المغيرة القوّاس، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشدّ الناس عذابًا ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

الخاتمة

قال نبي الله سليمان عليه السلام لملكة سبأ مذكرًا إياها، بأنه عليه السلام قد أوتي العلم قبلها وقبل قومها، وأكّد أنه من المسلمين، وهاتين الصفتين؛ أي اكتساب العلم، والدخول في الإسلام، هما موضوع كتابنا هذا.

فقد بدأنا به باحثين عن صور العلم في القرآن الكريم وعن معانيه المقصودة، ووصلنا في النهاية إلى أن المقصود بالعلم هو الإسلام – على حد فهمنا وما توصلنا إليه –، ثم لما سمعتُ الآية الكريمة في صلاة الفجر من عدة أيام، طرت فرحًا، مع أني لطالما قرأتها وسمعتها، إلا أن توافقًا بين ما وصل إليه بحثنا، وبين ما قاله نبي الله سليمان رسّخ لي صحة ما وصلنا إليه، وأرجو الله أن أكون على صواب في ذلك. حيث يقول عزّ وجلّ على لسان سليمان عليه السلام: **وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**(النمل: ٤٢).

ذكر ابن عاشور: إن حُمل معنى (**مِنْ قَبْلِهَا**) على ظاهره؛ بأن قوم بني إسرائيل كانوا أسبق في معرفة الحكمة وحضارة الملك من أهل سبأ، لأن الحكمة ظهرت في بني إسرائيل من عهد موسى، فقد سنَّ لهم الشريعة، وأقام لهم نظام الجماعة، وعلمهم أسلوب الحضارة بتخطيط رسوم مساكنهم وملابسهم ونظام الجيش والحرب والمواسم والمحافل. ثم أخذ ذلك يرتقي إلى أن بلغ غاية بعيدة في مدة سليمان، فبهذا الاعتبار كان بنو إسرائيل أسبق إلى علم الحكمة قبل أهل سبأ...، فكان الأرجح أن يكون معنى (**مِنْ قَبْلِهَا**)؛ فائتونها في العلم وبالغون ما لم تبلغه.

وزادوا في إظهار فضلهم عليها بذكر الناحية الدينية؛ أي (**وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**) دونها. وفي ذكر فعل الكون دلالة على تمكنهم من الإسلام منذ القدم. ثم جاءت الآية التالية: **وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ** (النمل: ٤٣)؛ فملكة سبأ قد صدها عن الإسلام ما كانت تعبد من دون الله، أي صدها معبودها من دون الله، ومتعلق الصد، محذوف لدلالة الكلام عليه في قوله: (**وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**). فهي كانت تعبد الشمس. وإسناد الصد إلى المعبود مجاز عقلي لأنه سبب صدها عن التوحيد... ويؤكد هذا الكلام قول الله تعالى: **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**(آل عمران: ١٩)، فصار المقصود من العلم هو الإسلام أو دين الإسلام.

إن الفقه هو أدنى درجات العلم لأنه عبارة عن الفهم مطلقًا وهو يسعى لإدراك الأشياء الدّقيقة، أما العلم فهو المعرفة الموافقة للحقيقة. وإذا بلغ العلم درجة اليقين كان صحيحًا وصالحًا للاحتجاج به مع الاطمئنان لنتائجه، والعِلم أدنى الدرجات يعلوه (عِلم اليقين)، ثم (عَين اليقين)، أمّا أعلاه فـ (حقّ اليقين). ولابد للإنسان المسلم أن يسأل الله تعالى العلم النافع، لقوله صلى الله عليه وسلك: **(سَلوا اللهَ علمًا نافعًا، وتعوَّذوا باللهِ من علمٍ لا ينفَعُ)**[١].

[١] سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار الفكر ببيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه ابن ماجه في كتاب الدعاء باب ما تعوذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج ٢، ص ١٢٦٣، وإسناده صحيح في الزوائد، رجاله ثقات.

لقد أوضح البحث أن العلم الغيبي لا يكون إلا بالخبر الصادق، لذلك لن يفيد المنهج التجريبي بتحقيق الإيمان بالله تعالى لمحدوديته عن استيعاب الأحداث الغيبية. ولابد للعقل السليم من أن يجمع بين المنهجين العقلي والتجريبي، فالأول يبني اليقين والثاني يبني الفهم، وكلاهما كما يقول ابن خلدون مفتاح لمعرفة سنن الله في خلقه، ويعمل كل منهما في ساحة مختلفة. وكل منهج لا يستطيع تفسير واستيعاب الواقع يجب أن يخضع للتغيير، وهذه سنة من سنن الله تعالى، فسنة التدافع مآلها سنة التمييز، وسنة التمييز مآلها بقاء ما ينفع الناس وذهاب غيره شأنه شأن زبد البحر.

والدليل الذي يوصل إلى اليقين، تسبقه فرضيات، ليصير حجة، فإن رافقه برهان يُثبت حقيقةً لا مجال لردها، وتكون واضحة بحيث تجعل الشك فيها عبثًا، فهذا برهان أشبه بالنور الذي يُظهر الشيء كما هو، فإن أضيفت له قوة التنفيذ، صار سلطانًا. والفائدة من الدلائل أنها عصمة من الوقوع في الاختلاف، إذا قُيِّضت لها الأفهام.

إذًا: الدلائل والحجج توصل إلى العلم، فإن كان حقًا؛ كان وسيلة توافق وسعادة بين الناس، وإن كان غيًّا؛ اقتتلوا وأزهقوا أرواحهم دون طائل، لأن الأصل في العلم أنه يوجب رفع الخلاف، فإذا كان مجيئه سببًا لحصوله، فإن المقصود من العلم ليس العلم بحد ذاته، بل طلب الرياسة والبغي، ولذلك اقتتلوا.

ويكون الجانب التطبيقي للعلم الصحيح؛ حصول الإيمان الحق، ويكون الجانب العملي لهذا الإيمان؛ العمل الصالح، ولذلك ترافق الفعلان: آمنوا وعملوا الصالحات

باستمرار. والإيمان الغيبي يُستنبط بالعقل، وأساسه العلم الغيبي الذي يحتاج خبراً صادقًا، بينما الإيمان الحسي يكون بالمشاهدة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

حماة (حماها الله) ٢٨ ربيع الأول ١٤٤٨ هـ الموافق ١٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٢٦ م

المؤلف / سامر مظهر قنطقجي

المراجع

١. أبو العزم، عبد الغني، معجم الغني، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١م، جامع الكتب الإسلامية.

٢. ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور [ت ١٣٩٣ هـ]، تفسير ابن عاشور = تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ م [١٤٠٤ هـ]، المكتبة الشاملة.

٣. الأزدي، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، دار الفكر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

٤. البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، صحيح البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة: السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١ هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني، موسوعة الشاملة.

٥. البداريـن، د. أيمن عبد الحميد، نظرية التقعيد الأصولي، دار ابن حزم ببيروت، ٢٠٠٦.

٦. الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم، ٥٧٣ هـ – ١١٧٧ م، مكتبة مجمع اللغة العربية. رابط.

٧. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب =

التفسير الكبير، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

٨. الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦هـ)، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، المكتبة الشاملة.

٩. السامرائي، د. فاضل، فيديو: لماذا اختلفت خواتيم الآيات في القرآن؟ أسرار بلاغية لنهاية كل آية! العلامة، يوتيوب، رابط.

١٠. السيوطي، جلال الدين علد الرحمن، الجامع الصغير للسيوطي، دار الكتب العلمية.

١١. الشخص والدماطي، د. عبد العزيز السيد، د. عبد الغفار عبد الحكيم، قاموس التربية الخاصة، مكتبة عين الجامعة.

١٢. الشعراوي، محمد متولي، خواطر الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم، المكتبة الشاملة.

١٣. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، الفروق اللغوية.

١٤. القرشي، أبو زكرياء يحيى بن آدم بن سليمان القرشي بالولاء، الكوفي الأحول (ت ٢٠٣هـ)، كتاب الخراج، الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤.

١٥. القزويني، محمد بن يزيد أبو عبد الله، سنن ابن ماجه، دار الفكر ببيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
١٦. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠م
١٧. المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، المتوفى ١٠٣١ هـ، حققه أحمد مجتبى، دار العاصمة بالرياض.
١٨. المناوي، محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.
١٩. الودعان، د. وليد بن فهد، بناء الأصول على الأصول، رسالة دكتوراة جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٢٨ هـ.
٢٠. برحال، فاروق، ختم الآيات القرآنية بأسماء الله الحسنى بين إعجاز المعنى وروعة البيان، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، موقع الموسوعة القرآنية، رابط.
٢١. بوعزة، د. الطيب، جلسة حوارية بعنوان: مشروع التجديد المنهجي بين العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية، يوتيوب: رابط.
٢٢. جامعة المدينة، التفسير الموضوعي، تعريف الربا وبيان الأدوار التي مر بها تحريمه ومشروعية التحريم، المكتبة الشاملة، رابط.

٢٣. عطية وجبل والمنجودي، محمد خيري مصطفى، وعبد الكريم محمد، وإيمان عليوه عباس، أسماء الله الحسنى الواقعة تمييزاً في ختام الآيات القرآنية – دراسة تفسيرية، المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة طنطا، رابط.

٢٤. قنطقجي، د. سامر، الفتاوى المالية، الجزء الثالث، كاي للنشر.

٢٥. قنطقجي، د. سامر، فقه المحاسبة الإسلامية: المنهجية العامة، مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، ٢٠٠٤، رابط.

٢٦. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة.

٢٧. محمد، د. حسب الرّسول العباس، المدخل إلى مناهج المفسِّرين، بحث منشور في مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد الرابع عشر ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م.

٢٨. محمد، د. محمد شلبي، ختم الآيات بالأسماء والصفات الإلهية (دراسة تحليلية)، موقع الألوكة الشرعية، رابط.

٢٩. محمد، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير الخازن، لباب التأويل في معنى التنزيل (تفسير الخازن)، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م.

صدر للمؤلف

١) **ترشيد عمليات الصيانة بالأساليب الكمية**، رسالة ماجستير، ١٩٩٠، جامعة حلب، منشورات كاي، نشر إلكتروني. ويتضمن ثلاثة نماذج رياضية فريدة:
– نموذج استبدال التجهيزات (أسلوب البرمجة الديناميكية).
– نموذج تخزين قطع التبديل (أسلوب البرمجة الخطية والبرمجة الديناميكية).
– نموذج قياس الموثوقية.

٢) **دور الحضارة الإسلامية في تطوير الفكر المحاسبي**، رسالة دكتوراه، جامعة حلب، ٢٠٠٣، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣) **فقه المحاسبة الإسلامية / الجزء الأول: المنهجية العامة**، مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٤) **معجم مصطلحات فقهية عربي / عربي**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٥) **فقه المحاسبة الإسلامية / الجزء الثاني: المحاسبة الاجتماعية**، دار النهضة بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٦) **مشكلة البطالة وعلاجها في الفقه الإسلامي**، مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٧) **الفروق الجوهرية بين المصارف الإسلامية والمصارف الربوية**، دار شعاع، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٨) **صناعة التمويل في المصارف والمؤسسات المالية الإسلامية**، دار شعاع، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٩) **التأمين الإسلامي التكافلي، أسسه ومحاسبته**، دار شعاع.

١٠) **لغة الإفصاح المالي والمحاسبي XBRL**، دار أبي الفداء للنشر والتوزيع والترجمة، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١١) **سياستا تحصيل الزكاة وإلغاء الضرائب الماليتين (فقه الاقتصاد المالي)**، دار شعاع، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٢) **صندوق القرض الحسن**، دار شعاع، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٣) **ضوابط الاقتصاد الإسلامي في معالجة الأزمات المالية العالمية**، دار النهضة بدمشق – ودار السيد بالمملكة العربية السعودية – ودار شعاع بحلب (نسخة مزيدة ومنقحة)، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٤) **فقه المعاملات الرياضي**، دار أبي الفداء للنشر والتوزيع والترجمة، منشورات كاي، نشر إلكتروني. ويتضمن خمسة نماذج رياضية فريدة:

– النموذج الرياضي للربا.

– النموذج الرياضي للبيوع.

– النموذج الرياضي للغرر.

– النموذج الرياضي للاقتصاد الإسلامي.

– نموذج قياس أداء المعاملات المالية الإسلامية بديلا عن مؤشر لايبور.

١٥) **فقه الأسواق**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٦) **فقه الإيراد**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني. والكتاب مترجم للغة الأوردو.

١٧) **فقه التكلفة**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٨) **فقه الربح**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٩) **أيهما أصلح في الاستثمار معيار الربح أم معيار الاستثمار؟**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٠) **نموذج توزيع أرباح وخسائر شركات المضاربة الإسلامية – نموذج رياضي –**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني. والكتاب مترجم للإنكليزية.

٢١) **الفساد، أسبابه ونتائجه والحلول المقترحة للقضاء عليه**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٢) **معيار قياس أداء المعاملات المالية الإسلامية (بديلاً عن مؤشر الفائدة)**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٣) **مؤسسات البنية التحتية للصناعة المالية الإسلامية**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٤) **أربعون قاعدة في الاقتصاد لبناء الأمة وإصلاح البلاد قواعد اقتصادية من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم**، دار الحديث والسيرة النبوية بدمشق، ومنشورات كاي، نشر إلكتروني، ونشرته هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لشمال المغرب.

٢٥) **البحث العلمي نظرات في منهجه ورسالته**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٦) **فقه الابتكار المالي بين التثبت والتهافت**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٧) **منهج التغيير في كلمات رئيس التحرير**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٨) **نظرات في كتاب لمحة الناظر في مسك الدفاتر** (تأليف مشترك)، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٩) **حلو الكلام**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٠) **إضاءات على الهداية الإلهامية في مسك الدفاتر والأعمال التجارية** (تأليف مشترك)، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣١) **معيار قياس أداء المعاملات المالية**، الطبعة السابعة، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٢) **محاسبة التأمين الإسلامي**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٣) **نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية – الجزء الأول: التفسير التحليلي**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٤) **نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية – الجزء الثاني: التفسير التحليلي**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٥) **فقه الإدارة المالية والتحليل المالي**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٦) **السياسات النقدية والمالية والاقتصادية، المثلث غير المتساوي الأضلاع بنظرة إسلامية**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٧) **إدراك الحقائق طريق الإيمان**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٨) **المصارف المركزية بين القيل والقال والمستقبل المنشود**، منشورات كاي، نشر الكتروني.

٣٩) **الإدارة الاستراتيجية (السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد)**، منشورات كاي، نشر الكتروني.

٤٠) **نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية** – التفسير الموضوعي فقه المخازن وسلاسل التوريد – الكون أنموذجا، منشورات كاي، نشر الكتروني.

٤١) **نهاية الإمبريالية الفائقة**، ترجمة، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٤٢) **الفتاوى المالية**، ستة أجزاء، مشترك، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٤٣) **فقه المحاسبة ومسك الدفاتر**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٤٤) **نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية** – التفسير الموضوعي التعليم المهني، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٤٥) **الريادة في الأعمال**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٤٦) **نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية** – التفسير الموضوعي التمكين الاقتصادي – الجزء الخامس، منشورات كاي، نشر إلكتروني..

٤٧) **نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية** – التفسير الموضوعي إدارة الاقتصاد – الجزء السادس، منشورات كاي، نشر إلكتروني..

٤٨) **نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية** – التفسير الموضوعي النهوض الاقتصادي – الجزء السابع، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٤٩) **تأويل العلم في القرآن الكريم**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

إضافة لأكثر من ٥٠٠ مقالا متخصصًا.

جميع المؤلفات متاحة على الرابط:

https://kantakji.com/tag/kantakji/

www.kantakji.com

تأويل العلم في القرآن الكريم

لقد أوضح البحث أن العلم الغيبي لا يكون إلا بالخبر الصادق، لذلك لن يفيد المنهج التجريبي بتحقيق الإيمان بالله تعالى لمحدوديته عن استيعاب الأحداث الغيبية. ولابد للعقل السليم من أن يجمع بين المنهجين العقلي والتجريبي، فالأول يبني اليقين والثاني يبني الفهم، وكلاهما كما يقول ابن خلدون مفتاح لمعرفة سنن الله في خلقه، ويعمل كل منهما في ساحة مختلفة. وكل منهج لا يستطيع تفسير واستيعاب الواقع يجب أن يخضع للتغيير، وهذه سنة من سنن الله تعالى، فسنة التدافع مآلها سنة التمييز، وسنة التمييز مآلها بقاء ما ينفع الناس وذهاب غيره شأنه شأن زبد البحر.

وتوصل الدلائل والحجج إلى العلم، فإن كان حقًا؛ كان وسيلة توافق وسعادة بين الناس، وإن كان غيًّا؛ اقتتلوا وأزهقوا أرواحهم دون طائل، لأن الأصل في العلم أنه يوجب رفع الخلاف، فإذا كان مجيئه سببًا لحصوله، فإن المقصود من العلم ليس العلم بحد ذاته، بل طلب الرياسة والبغي، ولذلك اقتتلوا.

ويكون الجانب التطبيقي للعلم الصحيح؛ حصول الإيمان الحق، ويكون الجانب العملي لهذا الإيمان؛ العمل الصالح، ولذلك ترافق الفعلان: آمنوا وعملوا الصالحات باستمرار. والإيمان الغيبي يُستنبط بالعقل، وأساسه العلم الغيبي الذي يحتاج خبرًا صادقًا، بينما الإيمان الحسي يكون بالمشاهدة.

المؤلف..

www. kantakji. com